الفصل الثالث

درب الفيل

لا تزال مناسبة مثل هذه حدثت في الماضي البعيد، تذكر في تقاليد الواحة. يعود تاريخ الحادثة إلى سنة مولد الرسول ﷺ عام ٥٧٠م، حينما عبر بيشة جيش نائب الملك الحبشي على اليمن أبرهة[١] للهجوم على الحرم الديني بمكة. ستعطي الفصول القادمة للقارئ إشارات متكررة للقسم الجنوبي لدرب هذا الغزو المشهور، والمعروف لدى المؤرخين العرب باسم «درب الفيل» ذلك بسبب الفيل، أو الأفيال التي صاحبت الجيش الحبشي.

لا بد أن يكون ذلك الجيش، الذي بلا شك قد تضخم بالتقاليد، عبر هذا السهل نفسه، الذي يمتد عريضاً وبعيداً إلى جانب وادي بيشة، المملوء بالنخيل ثم إلى سلسلة يلا، فيما وراء التلال الصغيرة الصوابر. لا بد كذلك أن يكون الجيش وأفياله قد عبر إلى الجانب الأيسر للوادي، من هذا الموقع إلى جوار الروشن ونمران ليتبع الطريق نفسه إلى مكة، كهذا الطريق الذي بدأنا السير عليه في اليوم الثامن والعشرين من مارس. سيغادر سعيد بن كدسة بيشة في صحبة قافلة صغيرة مكونة من الحجاج والتجار وذلك عصر اليوم نفسه غير أنه سيكون مسافراً عن طريق رنية الخرمة.

لقد كان هدفي هو رؤية البلاد التي عبرها الفيل، وسيخصص هذا الفصل لوصف تلك المنطقة. لقد قطعنا الآن حوالي ٢٠٢ ميل منذ مغادرتنا السليل -حوالي ١٥٦ ميلاً من اللدام- وكنا تقريباً في منتصف الطريق إلى السيل

(١) استقل أبرهة بالحكم في اليمن بعد قتله القائد إرياط ولم تفلح محاولات الملك الحبشي النجاشي في القضاء عليه، وقنع بخضوع اسمي من أبرهة الذي تلقب بلقب ملوك اليمن من التبابعة. (المراجعون).

-حوالي ١٩٢ ميلاً- حيث إنه هناك، وفيما يخصني، فإن رحلة الجمال العظيمة ستنتهي بركوبي متن لوري عابر ودخول مكة.

واكبت بداية الرحلة رياح شرقية غير مواتية جارفة الرمال من حولنا، وحجبت عنا المنظر الطبيعي أثناء تقريرنا لطريقنا عبر الوادي. مررنا سريعاً على امتداد الجانب الشمالي لنمران بين المدينة والقصر الكبير الوحيد، الذي على حافته كانت تقوم مزارع النخيل الكثيفة، والتي انحرفت على مسافة قريبة منا على هيئة شبه الدائرة مرتدة إلى الركن الشمالي الغربي للمدينة. مررنا بعد ذلك فوق الأرض العارية للوادي، تجاه نخيل الحرف الذي يبطن جانب الوادي الأيسر - الجال الشمالي -. وقد انتشرت على الأرضية الرملية الثابتة لبطن مجرى السيل أشياء مختلفة قليلة الأهمية ومطروحات جلبتها السيول الأخيرة الحديثة. واندفن بئر في وسط الوادي بالرمال وبالمخلفات. توقفنا بعد مسافة قليلة، لنسحب الماء من بئر خريت التي تقع على أرض مرتفعة قليلاً، في وسط مساحة زراعية معتبرة، لا تزال تحمل آخر مجموعة من القمح الذي ينتظر الحصاد. شمخت نخيلات قليلة من حول البئر التي تظللها شجرتان من أشجار الصفصاف (الغاف). كان عمق الماء يبلغ ٢٠ قدماً فقط في موسم الأمطار، وعلمت بأنه من هذه النقطة المركزية في الوادي فإن عمق الماء يزداد تصاعدياً تجاه أي من الجانبين. لقد تحصلت في هذا الموقع على نموذج من شراك الطير المحلية (فخ) من إحدى السيدات، وكان معها ثلاثة أولاد، وكانت تسحب الماء من البئر لاستخدامها الخاص بالمنزل وبالمقابل فقد ناولتها ريالاً واحداً.

ما كنا نمر لنعبر الشريط الرطب لبطن الوادي حتى سقط جمل سعد، وانزلقت قوائمه الأربعة من تحته وكلها في الاتجاه نفسه وطرحته جانباً مع صدور

صوت مدوٍّي. لم يحدث ضرر للجمل -لحسن الحظ- من هذه الكارثة التي مثلها مثل عامة الكوارث، قد أثارت الكثير من المرح على حساب سعد، وقليلاً من التعاطف مع ورطته، ولكنها حادثة قد تحدث لأي شخص. والعديد من الجمال معروفة بتعريضها لكسر عضو فيها فوق أرض زلقة. لقد لاحظت أن غابة الطرفاء النابتة على حافة الجانب الأيسر للوادي حينما اقتربنا منها كانت في معظمها محتطبة للوقود. هذا بالتأكيد غير طبيعي لأن دخانها اللاذع ينفر الناس من استخدامها حتى في نيران المعسكر، غير أن إمدادات الوقود في جوار المنطقة الكبيرة غالباً ما يكون منخفضاً إلى درجة الانعدام والحطب المناسب كثير التكلفة على الفقراء.

عبرنا سريعاً خلال حزام النخيل الطويل النحيل التابع للحرف، إلى السهل المكسو بالرمث الممتد من الجانب الأيسر للوادي تجاه تلال الأربيان التي تقع قليلاً إلى الخلف، كان طريقنا هو الدرب المباشر للحج، من بيشة إلى مكة، وهو معلم جيداً بالآثار للقوافل الضاربة في التاريخ. كان دليلنا هو ناصر بن سحمي من قبيلة البقوم وقد أمدَّنا به الأمير لكي يمثله بصفة شبه رسمية.

سرنا الهوينا مدة ساعة، متجاوزين سفوحاً خالية من الشجر إلاّ من الطلح (سَلَم وسَمْر) ومرتفعات الأربيان تجاه شريط تلال نُعْمي الذي يحجب مجرى وادي التبالة وهو رافد مهم لبيشة. بين المرتفعات والتلال يعبر الطريق من الروشن إلى القرى الواقعة في أعلى مجرى تبالة عبر أرض مرتفعة من خلال مضيق صغير يسمى ريع هايف الذي يقع على مسافة ميلين ونصف الميل ناحية الغرب من الحرف.

ظهر خط طويل من أثل وطرفاء وسط التلال السفحية على يسارنا، أثناء اقترابنا من الوادي الذي يبرز من الأرض المرتفعة إلى دلتا، وليس إلى مجرى في طريقه للاتحاد مع مجرى بيشة، على جبهة عريضة متكسره إلى عدة مجارٍ. جرى الوادي عند المستوى المرتفع حيث عبرنا، داخل حوضين رملين من خلال غابة

حقيقـية من الطرفاء، يقدر عرضهـا بالميل ونصف الميل، ومرقطة هنا وهناك بتلال نعمي البعيدة.

علمنا بأن أولى قرى تبالة واسمها شديق[١] تقع على مسافة مسيرة ساعة أمامنا وأنها ذات مزارع نخيل واسعة تحـتوي على حوالي ٣٠٠٠ شجرة. وتقع قرية قنزية على مسافة ٢٠ دقيقة فـيما يلي شديق وتحتوي على ٦٠ منزلاً وبها ٢٠٠٠ نخلة. وتقع الثنية على مسافة مسيرة سـاعة تجاه أعلى الوادي، ويحتمل أنها هي المستوطنة الرئيسة إذ أن بها ١٠٠ منزل و٤٠٠٠ شجرة نخيل، وعلى بعد ١٥ دقيقة بعد ذلك تقع قرية مـكرم التي بها ١٠٠ منزل و٣٠٠٠ نخلة، وأخـيراً تأتي قرية تـبالة على مسيرة ساعة بعد ذلك، والتي قيل إنها تحتضن ما يقارب ٥٠٠٠ شجرة نخل و ٦٠ منزلاً. وتبدو واحة تبالة أرض مـزدهرة وذات ١٧٠٠٠ شـجرة نخيل و٣٥٠ منزلاً – قل إن عدد السكان يقدر بـ ١٥٠٠ نسـمة –، منتشرة فوق امـتداد يقدر بطول ٥ أميال. يـبدو أن الاتجاه العام للمـجريَيْن هو من الجنوب ناحية الشـمال ويقع رأس الوادي إلى الوراء البعيد في سلسلة العمود الفقري لمرتفعات الحجاز.

خرجنا من وراء الأرض النهرية – لتبالة إلى سهل عريض رملي، مطرز بتلال صغيـرة مبعثـرة وبسلاسل جبلية منخـفضة تحفهـا على يميننا سلسلة طويلة – ثلاثة أميال – تسـمى البرصاء على مسـافة الميلين عنا، ويخترقهـا منخفض وادي الخليج وهو رافد آخر لبيشة، ويجري موازياً تقريبـاً لتبالة. لا توجد مستوطنات ولا يوجد نخيل في هذا الوادي كله، والذي قيل إنه يصعد عالياً في جبال الحجاز، قريباً جداً من منبع وادي رنيـة. مـررنا بسلسلة من هضـاب مـتوازية تتـجـه من الجنوب إلى

(١) شديق: اسم قـريتين تقعان علـى جانب وادي تبالة، وتسـميان شـديق القديم وشديق الجـديد. الحربي، منطقة عسير، ج٢، ص٨٨٠. (المراجعون).

الشمال، وتدعى حبل وذلك بعد اختراقنا لمسافة ٢٠٠ ياردة هي عرض بطن المجرى، والتي استغرق قطعها ركوب نصف ساعة لما وراء الحافة حيث دلتا تبالة. تبدو لنا البلاد من حولنا وكلها ميتة وموحشة مقارنة بثراء وادي بيشة ووادي تبالة وتعد مكوِّنة لجزء من منطقة أرض مرتفعة غير مثيرة تدعى ظهر تقع على بعد مسيرة يوم كامل إلى الأمام من تبالة. بدت روافد الخليج، شعيب الخليفة وآخر ليس له اسم، كأنما قد عاشت أياماً أحسن، غير أن ما تبقى من خطوط الأشجار معلمة مجراهما كانت ميتة ومتآكلة. لقد أثرت الأمطار الأخيرة، هنا وهناك، في بعض أجزاء المنخفض الغطاء النباتي ليبرز. ولكن المنخفض كان في معظم الأجزاء فضاء موحشاً، مع مرتفعات قليلة غير مؤثرة ولكنها مخففة للملل مثل أم فرقين[1] والبرصاء.

انتهينا من آخر سلسلة الحبل عند منتصف فترة ما بعد الظهر، وتوقفنا لأداء صلاتي الظهر والعصر جمعاً، وذلك عند حافة سهل ضخم يسمى محات حيث أشجار الوهط. كان المكان بالفعل يتلألأ بهذه الشجيرات الشوكية إلى جانب تلال صغيرة مبعثرة جرانيتية رمادية داكنة ذات مساحات خشنة. كان سطح السهل ذا صلابة ومخدشاً عميقاً بآثار القوافل المتجهة إلى تربة ومكة. وتوجد إلى جانب الطريق بقايا نسر افترسه -فيما يظهر- ذئب. لعله التهم من جيفة جمل ساقط حتى صعب عليه أن يتحرك وأصبح بذلك فريسة سهلة للعدو الذي يجوس في خلسة. استغرق عبورنا لهذا السهل الكثير الأشجار حوالي ساعة أو أكثر، قليلاً قبل الغروب، ونفذنا من منطقة ظهر إلى خليط مسايل ضحلة، تسمى

(١) أم فرقين: جبل أسود ضخم من جبال بيشة، سمي بذلك لأنه مشطور الرأس، الحربي، منطقة عسير، ج١، ص١٨١. (المراجعون).

«متعارضات» واستقر بنا المقام في معسكر لنقضي الليلة في المجرى الرئيس لوادي المتعارضة والذي يجري إلى أسفل ليتحد مع بيشة في جوار عقيلان[١]. تغطي هذه المنخفضات محاصيل جيدة للعشب النجيلي الثمام مع انتشار كثيف للطلح، ولكنه كان طريقاً موحشاً به تلال صغيرة جرانيتية رمادية تتآكل إلى لون داكن وتتشقق هنا وهناك بخنادق من بازلت أسود.

لقد قطعنا حوالي ٢٠ ميلاً منذ مغادرتنا الروشن ونحن الآن على ارتفاع ٣٩٠٠ قدم فوق سطح البحر، وقد تعلق غبار خفيف فوق المنظر عند بروز الشفق من خلال الظلام الدامس في ليلة المحاق. غير أنني استطعت أن أقوم بملاحظاتي للنجوم بصورة كافية. جلس معظم رفاقي، وقد انتهى العشاء وانتهى التخلص من بقاياه، وهم في سعادة يهيئون أثواب إحرامهم، بينما أحضر الأكثر التزاماً منهم كتاب «مناسك الحج» لتجديد الإلمام بالتفاصيل المطلوبة للشعائر التي تنتظرهم عن طريق قرائتها بعضهم لبعض، ويقومون بتوضيحها. كان سعد في هذا المضمار، وهو أكثرهم دنيوية في التفكير وأقلهم تدينا، وأحسنهم فهماً وتمكنا بالموضوع وقد استمعوا له باحترام وإعجاب. ابن معدي، أكثر أعضاء الفريق تظاهراً بالتقوى، قال إنه يحفظ القرآن عن ظهر قلب، غير أنه حقيقة بالكاد قد تعلم، ويقرأ فقط في صعوبة. جلس ناصر البقمي وهو رئيس مجموعتنا إلى جواري يتحدث عن خبراته حينما رافق الأمير عبدالله بن معمر، لمحادثات مشاكل الحدود مع الوفد اليمني المفاوض في عام ١٩٣١م. ترأس عبدالله الوفد السعودي وافتتحت المحادثات في رازح في مقاطعة اليمن بسبب قربها من الجزء الرئيس للنزاع في

(١) عقيلان: منهل، قرب قرية الجنينة. (المراجعون).

ذلك الوقت: جبل العرو. استمرت هذه المرحلة من المحادثات لمدة ٢١ يوماً وانتقلت بعدها إلى أبي عريش على السهل الساحلي.

قادنا الطريق في الصباح التالي، عبر أرض جميلة جبل لتلال سفحية محطمة، شبيهة بما شاهدناه حول وادي عرقية بين السيل وهضبة الطائف، يبدو أننا كنا نصعد ونهبط ثم نصعد ونهبط، عبر ما يبدو كتتابع لا نهاية له، من سلاسل جبلية منخفضة وأودية ضحلة مكونة منطقة المتعارضات التي تغطي مساحة تقدر بعشرة أو اثنى عشر ميلاً مربعاً من الشمال إلى الجنوب، وممتدة من القاعدة إلى أعلى الجبال، تجاه الغرب، إلى حافة وادي بيشة. كانت بداية المسيرة، التي بدأت سريعاً بعد الساعة السادسة صباحاً، باردة منعشة مع نسيم لطيف يهب من الشمال. ووصلنا، بعد حوالي الساعتين، إلى المجرى العريض لذي اكشة الذي يعلِّم الحدود الشمالية للمتعارضات وهو أيضاً رافد آخر لبيشة، ويتحد معه عند أو بالقرب من بئر عقيلان نحو حوالي الميلين أسفل الجنينة. يقع بئر بريدة في بطن هذا الوادي وتقريباً عند الموقع الذي يتقاطع فيه ممر الحج مع المجرى، وللبئر خزان دائري جيد البناء، ومبطن بحجارة بازلتية مشذبة بعناية. يصل قطر فوهة البئر إلى ثمانية أقدام، وبه ماء كافٍ على عمق ٢٥ قدماً. يرتفع وادي ذي إكشة في ممر خشن صاعد على مسافة خمسة أميال ناحية الغرب من بريدة، وللوادي بئران أخريان في بطنه أعلى بريدة هما صبا على مدى نصف الميل إلى الأمام والشنيفية حوالي الميل الواحد فيما يليها. لا توجد آبار في الوادي بين بريدة وعقيلان وتبعد هذه عن الأولى بمسافة ٣٠ ميلاً.

تشبه هذه البلاد، فيما يلي هذا المجرى، تلك التي قطعناها لنصل إلى هنا، طريق يؤدي إلى تل سفحي محفوف بالروافد الجميلة لذي إكشة متضمنة الرافد

الأكبر نسبياً وهو أبو ظبيان ويمتد إلى مسافة ثلاثة أميال إلى سلسلة منخفضة واضحة جداً ومعلَّمة تبدأ من ممر يسمى سديرة من واديه الرئيس. ساعدني المضيق عند رأس شعيب سديرة والذي إلى أسفله يستمر طريق الحجاج لفترة أن أقوم بالتقاط منظر كامل لمرتفعات كور البرهة التي تكوّن حاجزاً صلداً وعالياً يفصل بين هذه المقاطعة ووادي رنية نفسه. ويجري من جانبه القريب خط المصرف الرئيس لوادي الذهاب والذي تصب فيه سديرة وعدة مصبات ثانوية أخرى كل حمولة السيول الموسمية، والتي تصل في نهاية الأمر إلى وادي بيشة على مسافة بعيدة أسفل عقيلان. تخترق جبال الكور والتي تقع على مسافة ستة أو سبعة أميال أمامنا، ثلاثة ممرات معروفة، تقود إلى وادي رنية من عدة نقاط وعبر ممرات منها ممر تريمة بعيداً إلى الشرق وممر مخضار في الوسط وممر القضة ناحية الغرب. وتوجد بئر تسمى عجيريدية في بداية هذه الممرات، وأيسر هذه الممرات هو آخرها. لذا يتجه طريق الحجاج ناحية وادي القضة حيث لا توجد صعوبة بالمناسبة في الحصول على الماء في هذه المنطقة، وذلك لأن الكتل الجرانيتية للكور منقرة، وذات برك صخرية عديدة يمكنها الاحتفاظ بالماء مدة لا تقل عن شهرين أو ثلاثة بعد موسم الأمطار.

مررنا أثناء مسيرتنا في هذا السهل العريض، الذي تغطيه الحشائش الخشنة وأشجار الطلح بدائرتين قطر أحداهما ٢٥ ياردة، والأخرى خمسين ياردة وكلاهما مخطط بعناية بحجارة من صخر وعلى مسافات متقاربة، وكل منهما تحتوي في مركزها على نصب تذكاري كبير، أو على قبر. ويبدو في وسط كل دائرة منخفض كأنما قصد منه أن يكون خزاناً مؤقتاً لتجميع مياه السيول التي تمر فوق السطح الطموي للسهل، علماً بأن الوسط مغطى برمال منقولة بوساطة الرياح. لم

يضف رفاقي شيئاً غير قولهم إنها قديمة، كما أنهم لم يلقوا الضوء على أهميتها، أو الغرض منها. مررنا دون أن ندري من مجرى سديرة إلى وادي الذهاب والذي تكون من مجريين على جانبي هضبة متوسطة بازلتية تسمى الضنط وقد اندمجا آخر الأمر مع مجرى ثالث يسمى دحثمي ويسمى المصرف الناتج الذهاب أو رشيدة، سيان، وينساب شرقاً نحو بيشة.

يوجد في مجرى دحثمي بئر بالاسم نفسه، وليست بالبعيدة من درب الحجاج، وقررنا أن نتخذ انحرافاً خفيفاً لزيارتها لأجل صلاة العصر واحتياجات الوضوء. كان من حسن الحظ أن فعلنا ذلك، وذلك لأن البئر كانت قائمة في أخدود ومحاطة بالصخور وكانت بلا شك قديمة البناء. كان يوجد على الجدران المحيطة وعلى الجلاميد البازلتية رسومات لجمال ووعول وأناس ونقوش ثمودية وعربية، وقد استطعت أن أنسخ بعضها قبل مواصلة السير. كان خزان الماء متيناً، ومن حجارة بازلتية، وكان الماء عند عمق ١٨ قدماً، غير أن البئر قد تضررت كثيراً من السيول الأخيرة، ويبدو أن الشجيرات في الأخدود والأعشاب الوفيرة قد قامت بجذب أسراب كبيرة من فراشات الكبريت، كما رأينا أيضاً بالفعل حمامة صحراء منعزلة. لم نر خلال مسيرة اليوم كله ما يدل على وجود حياة لإنسان أو لحيوان إلا راعياً وبعض الأغنام فيما وراء ذي إكشة.

واصلنا السير إلى رأس وادي دحثمي بعد متابعته مدة نصف ساعة إلى حيث المضيق الضيق الذي هبطنا منه على جانبه البعيد إلى مجرى شعيب (القضة) وهو رافد لوادي رنية. كانت سلسلة مضيق دحثمي مصيد مياه بين النظامين النهرين العظيمين: بيشة ورنية وكانت قمتها العامة على ارتفاع ٤٣٠٠ قدم فوق سطح البحر وتمثل امتداداً غريباً لكتلة الكور التي تملأ المستطيل الذي تكوّن من كل من

رنية إلى الشمـال، والقضة إلى الغرب وشريط دحثـمي – الذهاب – رشيدة إلى الجنوب. ثم تمتد شرقاً. كما اكتشفت في مناسبة أخرى على شريط طريق سيارات رنية – بيشـة تماماً ناحية الغـرب من مجرى بيشة. لقـد أمكننا رؤية أول البراكين، ذوات الحقول الصخـرية البركانية العظيمـة، مما يلي رنية، وذلك من المضيق الذي يشاهد بالقرب منه عـرق كوارتزي سميك يختـرق كتلة الكور الجرانيتية البـازلتية. كانت نبـعة بعيداً نحـو الشمال الغربي، بينمـا برزت قمتا الكور الجـرانيتية نـاحية الشمال. تراكمت أسفـل المضيق قليلاً كمية من الحجارة السائبـة على الهضبة إلى يميننا، ويبدو أنها كانت تعمـل كبرج مراقبة قبائلي. تعرج مجـرى القضة وعرضه أقل من ١٠٠ ياردة، في انحناءات سهلة بين السـلاسل الجرانيتية البـازلتية، والتي هدَّبته على الجـانبين وقد اكتـسى إلى درجة معقـولة بغطاء نباتي سفـحي جبلي، مكوّن من الطلح والعوشز وكثير من نبات الثمام الخشن وعشبة الحلفاء، ومن حين لآخر أشجـار السرح. كان الوادي، بصفة عـامة جافاً، وكان نصـيبه من الأمطار الأخيرة ضئيلاً. تعلَّمت صخور الوادي هنا وهناك، بالوسوم القبلية.

واصلنا السير إلى مـا بعد غروب الشمس وكان زملائي الأقـربون زايد وسعد وناصر وواحد أو إثنان آخران يرغبون في الاستمرار. غير أنني أصررت عليهم أن نعسكر في دربنا نفسه خـاصة وقد أصبحت الدنيا ظلاماً حـولنا لا نكاد نرى شيئاً ولم اهتم باحتـجاجاتهم. أشـرت إلى أن حيوانات التحـميل لا تزال على مسـافة بعيدة خلفنا، ولن تصلنا هذه إلاَّ بعـد نصف ساعة لاحقة. كان الرجـال المهتمون بها يلعنوننا ويهددوننا بصوت مرتفع ذلك لعدم اعـتبارنا لهم حينما تركناهم يمشون في الظلام عبـر ذلك الوادي الصخـري الضيق. أخـبرتهم أنه ربما كـانت أحوالهم ستسوء كثيراً لو لم أصر على التوقف. عندما فعلنا ذلك.

كنا على بعد ثلاثة أميال أو أقل من مجـرى رنية الذي وصلناه حوالي الساعة السابعة صبـاحاً في اليوم التالي، وذلك بعد مواصلتنا المسيـرة أسفل وادي القضة. شاهدت شجرتين مزهرتين على جانب التل، أثناء مرورنا، وكانتا جديدتين بالنسبة لي، وعلى مسافة قليلة إلى أسفل وجدنا بركة ماء في بطن المجرى في موقع معلّم بنصب حجري لحرب قبلية وقعت قبل ١٥ سنة بين محاربي سبيع وغامد، والذين تقع حدودهما خلفنا على امـتداد وادي دحثمي – الذهاب. كانت البـئر التي قمنا بزيارتها تابعة لسـبيع ولكنها تكون نقطة لقاءً ثلاثي بين تلـك القبيلة وأكلب – في السفوح التلالية نحو بيشة وما وراءها – وغامد – غرباً إلى جبال الحجاز –. يتسع وادي القضة تدريجياً الآن إلى عرض ٥٠٠ ياردة، مع كثافة للطرفاء داخل المجرى وحوله ذلك عندمـا اقتربنا من وادي رنيـة الذي يدخل بالفعل عبـر دلتا مخـضرة بكثافة بالأراك والأثل وقد نما بعضها إلى حجم أشجار عظيمة.

كان وادي رنيـة، من هذا الموقع العالي، والذي كان يجـري تجاه الجنوب إلى الشمال، غنيـاً بالغطاء النباتي والمياه. وقد تباين عـرضه ما بين ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ياردة ويتكون من صخور منخـفضة بازلتية فوق صخور خـشنة مكورة كلها كانت تكوّن بطن الوادي كما كان الوادي تنتـشر فيه متاريس مرتجلة حـجرية في خشونة ووجود نقاط قوية مصممـة للدفاع عن هذا المصدر المائي المهم جداً ضد أي اعتداء قبلي. تمتد بحيرة ذات اعتبار طولها ٣٠٠ ياردة وعرضها ٣٠ ياردة من موقع اتحاد القضة مع انسـياب متزن لمياهها تجـاه النهاية أسفل الوادي مختـرقة خيطاً من برك ذات حشائش ومنخفضات صخرية إلى أقصى مدى يمكننا رؤيته أسفل الوادي. لقد قيل إن هذا الماء مستديم ما عدا المواسم الكاملة الجفاف والتي هي في حكم النادر، وتبدو أنها تأوي عدداً كـبيراً من الأسماك التي يمكن رؤيتها مـتطلعة ناحية الذباب

الصغير والبعوض وحشرات أخرى لالتقاطها. لقد عانينا من البعوض حتى في معسكرنا هناك في وادي القضة الجاف أثناء الليل، غير أن هواء الصباح الباكر هنا يضج بحياة الحشرات في الغطاء النباتي، الذي يتكون بصفة رئيسة من طرفاء وأثل وأراك عند الموقع وحشائش الحلفا وشجيرات الشار عند الوادي نفسه إلى أسفل. وهذا الأخير يتدفق في رشاقة كغدير جبلي. قمت بالبحث عن بركة عميقة في الأسفل لكي أسبح فيها. كان الماء بارداً كالثلج، ولكنه منعش وحلو. التحم الوادي على مسافة قليلة من هذا الموقع بمسيل شعيب مخضر والذي يسوق الممر الوسط عبر جبال كور التي ذكرت من قبل. لا نستطيع رؤية أي جانب من واحة رنية من هنا، وقد قيل إن أقرب مستوطناتها تقع على بعد ٣٠ ميلاً مع اتجاه أسفل الوادي ومن هذا الموقع. كانت المسافة إلى الروشن في وادي بيشة حوالي ٤٧ ميلاً.

واصلنا مسيرتنا فوق هذه التلال الصغيرة الجميلة إلى ما وراء المجرى، بعد توقف لمدة ثلاث ساعات في هذا الموقع الجميل. ومن هناك تباعد دربنا تدريجياً نحو الشرق. اعترض هذا الممر الخشن العديد من روافد رنية وأحدها يسمى رثا – ربما تحريف محلي لروضة – التي تدل تلالها المحطمة على أحداث صراع بشري وقع في الأزمان السابقة، ذلك لانتشار ركام الحجارة كنصب تذكارية معلمة قبور القتلى، بينما هنا وهناك، تحمل قمة الهضبة، أو منحدر التلال الصغيرة، الآثار التي تدل على الجدران الحجرية التي شيدها الإنسان والتي لا بد أن تكون قد شيدت للدفاع عن موقع الماء.

تحركنا عبر مسيل ثانوي للمضيق ريع سحبل الذي هبطنا منه إلى وادي شعيب البحيثة الواسع. يدخل هذا المسيل إلى رنية على مسافة قليلة أسفل مدخل شعيب مخضر، ولكننا تتبعناه إلى أعلى حيث بئر حاسي حوالي مسافة ميل واحد

من موقع دخولنا إلى هذا المجرى كثيف الغابات. تحتفظ هذه البئر عادة بالكثير من الماء عند عمق خمسة أو ستة أقدام، ولكنها في هذا الوقت راكدة تماماً في بركة كبيرة من مياه السيول في وسط مستنقع لحشائش الحلفاء، مع الكثير من نبات الحرمل حول حوافه في أيكة من الطلح والمرخ والعوسج، وعدد من شجيرات أخرى. تقع بئر أبا الديمان على بعد ميل ونصف الميل عكس اتجاه الوادي بعد بئر حاسي في الوادي نفسه، ويوجد ماؤها عند عمق قامتين. وتقع بئر حبحب والماء فيها عند عمق قامة واحدة، على بعد نصف الميل إلى أعلى الوادي وعلى بعد المسافة نفسها توجد مجموعة من عشرة ثقوب مائية طبيعية تدعى برمة. يقع رأس وادي البحيثة، كما أخبرت على بعد عشرة أميال باتجاه أعلى الوادي من برمة داخل حوض صخري كبير وطبيعي يسمى الفرح، مكانه في ممر في المرتفعات إلى الغرب من حاسي. أكد لي ناصر أن التلال حول الفرح ممتلئة بالأرانب البرية والوعول والنمور وأن هذه الحيوانات توجد أيضاً في مرتفعات كور. كما لاحظنا مجموعات من الرعاة ينتمون إلى المفالحة من سبيع. كان الصخر التحتي لهذا الممر من جرانيت أحمر بينما كانت السلاسل القائمة والتلال الصخرية كلها من بازلت داكن اللون. برزت خضرة الغطاء النباتي رائعة مقابل الخلفية الأرضية السوداء والبنية.

واصلنا قدماً إلى البحيثة لفترة متحسسين طريقنا بين جلاميدها المكسرة وتوقفنا عند مسيل قصير في مضيق منخفض في سلسلة تفصله من رافده المسمى شعيب سمر. ثم مررنا بقلعتين محطمتين في المضيق نفسه وفي وادي سمر تقول عنهما الروايات المحلية إنهما ينتميان إلى قبيلة بني هلال القديمة. وقد كانتا دائرتي الشكل بقطر ٢٠ ياردة، ومبنيتان من حجارة كبيرة من جرانيت أحمر، بينما تم

تعزيز وتقوية المضيق عند رأس المسيل بجدار قـوي، إلى جانب حاجزين متوسطين وامتدادات أعلى السفوح على الجانبين. هبطنا إلى شعيب ثنيم الذي يجري مقاطعاً طريقنا من جهة الجنوب الغربي ناحيـة الشمال الشرقي في طريقه للاتحاد مع وادي رنية وعبـرناه لنصعد إلى هضبة صغـيرة صخرية معلّمـة بنصبين تذكاريين. كنا لا نزال في منطقة رثا الذي يحتـضن كل هذه الشبكة من مصبات رنيـة غير أننا الآن ولأول مرة نطل على منظر لحـقل الحمم العظيم لحرة البـقوم ذات القمم البركـانية المبعثرة والتي تمكنا من رؤية اثنتي عشرة واحدة منها.

لقد صممت النصب التذكارية في هذا الموقع كعلامات تدل على التقاء طريق غامد الرئيس مع طريق حج بيشـة – مكة. نستطيع كذلك رؤية الطريق الأول وهو يجري إلى الخـارج ناحية الجـبال في اتجاه غربـي بينما جرى طريقنا باتزان ناحـية الشمال الغربي.

يقع الطريق في حوض شـعيب الضعـة الضحل المتدرج العـمق تجاه السلسلة المتقاطعة المسماه هـضبة الضعة وخلالها يتحد به مجرى شـعيب البير على الجانب البعيد والذي بدوره يخترق السلسلة الجنوبية للركام البركاني. يجري شعيب الضعة من هذا الموقع شرقـاً بين سلسلة الضعة وممر الركـام البركاني ليواصل على امـتداد الحافة الجنوبية لـلأخير، حتى يتحد مع مرور الوقت مـع وادي رنية. ولذلك فهو يكوّن الحدود الشمالية لمنطقة رثا الذي مررنا بجواره إلى الحرة وهي مساحة ضخمة من قفار سوداء يبدأ بهداب صخور بازلتـية، لامعة صلدة، وسرعان ما يأتي بعدها حمم بركانية منصهرة ذات نشاط بركاني حديـث نسبياً. تنتهي الهداب البازلتية إلى سلسلة تسمى هضـيبات الملعب والتي تكون الحدود القـبلية المعترف بهـا بين سبيع والبقـوم، ولكن الرعاة الذين يحـتلون المراعي حول شـعيب البيـر في هذا الوقت

ومعهم قطعانهم الضخمة من الضأن فإنهم ينتمون لقسم آل مسلَّم من غامد[١] وهذه شهادة بليغة لأثر السلام الجديد في جزيرة العرب. احتلت قبيلة غامد المرتفعات إلى جنوب مجرى رنية من رغدان إلى غضانة. والتي تكشف عن قوتها العددية بحقيقة أنها تدفع مبلغ ١٥٠٠٠ ريال سنوياً للجهاد – إعفاء عسكري – وتدفع ٢٩٠٠٠ ريال زكاة عادية في السنة. ترك بعض رجال القبائل المتجولين آثارهم هنا وهناك على الصخور البازلتية برسمهم ما يشبه صورة حيوان ما بريأ كان أو مستأنساً.

على تعامد مع سلسلة الضعة التي يبرز منها، ناحية الشمال، حاجز بازلتي منخفض يدعى رجيفة يفصل مجرى شعيب البير من حوض الحمم البركانية، ومن ثم إلى حدود أبيار ابن غنام في بطن الوادي السابق، وعلى مسافة ميل واحد داخل حدود البقوم. توقفنا هنا مدة ساعة لنسحب الماء ونستمع لأخبار هذه المقاطعة من الرعاة الذين كانوا قادرين على إطلاع ناصر على الحالة العامة لمعسكرات أقربائه البقوم. يبلغ عدد هذه الآبار خمس آبار، يتراوح عمقها ما بين قامتين ونصف إلى ثلاث قامات: ثلاثة منها متقاربة من بعضها البعض في شريط على امتداد شاطئ المجرى، والاثنان الآخران يقعان عند المؤخرة. لقد تم حفر هاتين البئرين في أرضية السهل الصخرية الصلدة الجرانيتية الحمراء، والتي كانت مغطاة بطين وحصى إلى عمق ثلاثة أقدام. يشق المجرى طريقه عبر صخور جبسية هي أيضاً مغطاة بالحصى، ويخترق خزان البئر هذه الطبقات إلى أسفل الصخر. أصبحت إحدى هذه الآبار معطلة مؤخراً بسبب سيل كثيف ملأها بالطمي والماء حتى الحافة.

(١) آل مسلم من غامد البادية، ويسكنون بسفوح السراة. الزهراني، المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران، ص٣٢. (المراجعون).

واصلنا مسيـرتنا تجاه الشمال الشـرقي، على امتداد الشعيـب، بعد أن أكملنا احتيـاجاتنا، ثم ابتعدنا تدريجـياً عن الشعيب حتى وصلنا بعـد حوالي الميلين إلى قطعة أرض ذات غطاء شجري كثيف وفيه قررنا أن نعسكر تلك الليلة. كان الوقت في أول العصر ورأينا أن نتـرك لجمالنا المرهقة المنفعة الكاملة بهـذه المراعي الممتازة من حولنا. إلى جـانب ذلك فقد كـان ناصر يتطلع إلى زيارة أقاربه. لقـد حاول ناصر بالفعل أن يوقفنا قبل ذلك، ولكنني واصلت المضي قدماً، متجاهلاً إشارته. لقد حاول، لبعض الوقت، أن يحـصل على الإذن بتركه في هذه المنطقة، ولكنني كنت مصراً بعدم الإذن له قبل وصولنا إلـى تربة والتي كان الأجر مدفوعاً له على أن يوصلنا إليها. كان ناصر أيضاً يتـمنى امتلاك منظاري ثنائي العدسة، ولكن بلا فائدة وقد كـان في مزاج سيء إلى حد ما. فـقد جاء الآن راكبـاً، يلاحقني وهو غضبان هائج، ليعلن لي أنه لا شأن له بي ولا بأساليبي غير المنطقية، والتي سيبلغ عنها ابن سـعود. أخبرته أنه حـسب ما يخصني يمكنـه أن يذهب إلى جهنم ويبلغ عني الشيطان وأخبرته بأنني سأعـسكر كيف ومتى يروق لي ذلك. ذهب عني بعد ذلك في غضب شديد مـدركاً أننا كلنا قد عرفنا أن كل مـا يريده هو أن يسمح له بالذهاب لأصدقائه في الصحراء. حدث كل هذا حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، ولم أكن مستغرباً لرؤية ناصر عائداً للمعسكر في الـعاشرة مساءً وفي صحبته أحد أقربائه وقد أحضره لي على الفور مـقدماً له، دون أية إشارة إلى الشجار الذي دار عصراً بيننا. وطالما جاء بنفسه فلم يكن من الضرورة التعليق.

انتشرت المراعي الـشجرية في روضة ابن غنام بعيـداً وعلى اتساع من أطراف سهـل الحمم البـركانية، المـمتلئ بالرمـاد البركـاني، وبالرمل. والذي تمكنت من رؤيته، وما حوله، من تل صغيـر بجوار معسكرنا. تواجهنا من الغرب عن طريق

الشمال إلى الشرق شبه دائرة كبيرة من الحمم البركانية ذات أكثر من ١٢ قمة بركانية منتشرة على مسافات غير منتظمة. انقسم السهل إلى الغرب من موقعنا إلى قسمين بواسطة سلسلة منخفضة تسمى دج يقع خلفها سلسلة طويلة منخفضة من تلال لحمم بركانية ذات قمم عشرة تسمى الأحايل وتكون الطرف الغربي للحرة. يقف توأم لفوهة بركانية، قليلاً إلى شمال هذه السلسلة يسمى أبا الريات ويفصلهما بئر قديمة تحمل الاسم نفسه هذه البئر «ميتة» الآن وبلا ماء، لقد كانت هذه البئر عبارة عن محطة للمبيت لدرب الفيل أو «درب الأجل» كما يسميه البقوم وقد تباعد من طريقنا عند رأس وادي دحثمي ليطوق البلاد التلالية الوعرة التي اجتزناها. ثم يلتف من حول هضبة سهلة خلف سلسلة الأحايل إلى بئر أبي الريات ثم تنغلق مرة أخرى فيما يليها ناحية الشمال، على طريقنا مباشرة، سرعان ما نبتعد عنه لتجنب تربة. كلا الدربين قد استخدمتهما قوافل الحج المتجهة إلى مكة، رغبوا في زيارة تربة أم لا. والعرف العام أن جيش أبرهة الحبشي تقدم نحو مكة عن الطريق الأكثر ماءً، وحين انسحابه انهزم على طريقنا. كان السهل تنتشر فيه حولنا معسكرات العرب الصغيرة مع قطعان أغنام عديدة (بيضاء) وماعز (سوداء) منتشرة من حولهم. لقد كانت قمة موسم ولادة الحملان، وكان رعي الحملان والحيوانات الصغيرة منفصلة عن الحيوانات الكبيرة أسلوباً واضحاً. كانت الأمطار هذا العام وفيرة وبشكل واضح وكان المرعى في أفضل حال. ويبدو أن الأعراب كانوا في قمة معنوياتهم.

يحتل حقل الحمم البركانية لحرة البقوم كل المنطقة الواقعة بين وادي رنية ووادي تربة ممتداً من خط الأحايل عند طرفه الغربي، شرقاً إلى طريق السيارات الجديد من الخرمة إلى رنية. لقد ارتفعت بعض قممه البركانية وفوهاته ذات

الأشكال الخيالية إلى علو ٥٠٠ قدم، أو يزيد، فوق مستوى السهل، ولكنها، في معظم أجزائها، كانت مجرد كتل بلا شكل، ترتفع إلى ١٥٠ أو ٢٠٠ قدم. تحاشينا الجسم الرئيس للحمم البركانية، بعبور بعض البروزات الوعرة منها عندما تبعنا الطريق الأقل صعوبة متنقلين من مساحة مكسوة بالشجيرات، والطمي السهلي إلى أخرى. كانت منطقة الصخور البركانية مكسوة بالشجيرات وبالغطاء النباتي الربيعي الجديد، والذي لمع مقابل الخلفية السوداء للمنظر الطبيعي بمسحته الخضراء اللطيفة. حلّق فوق رؤوسنا سرب من طيور القطا، مع بزوغ الفجر متجهاً للآبار من خلفنا، وقد أزعجنا هذه الطيور على امتداد اليوم كله بمسيرتنا فوق السهل الذي استقرت هي فيه، بعد شربتها الصباحية، وذلك للغذاء أو للراحة. مررنا، هنا وهناك، بعشش بدائية البناء وزرائب أغنام من حجارة لحمم بركانية، حيث أصبح الذئب الجوال في هذه البلاد هو العدو الرئيس للرعاة، بعد أن توقف الإنسان في هذه البلاد، تحت النظام الجديد، عن إخلاله بالسلام. غير أن الأعراب لا يسلمون جدلاً بكل شيء ووجود أجنبي داخل بوابات العربي أمر ينظر إليه بحذر لتحسس أية علامات لسلوك مشاكس كما اكتشفنا ذلك أثناء النهار.

تحركنا من المعسكر عند الساعة السابعة صباحاً، ثم توقفنا بعد مسافة قصيرة عند شجرة تنضب كبيرة في منطقة مكشوفة من الصخور البركانية لكي أتمكن من جمع بعض الفراشات التي جذبتها الشجرة. وأما في رقع الصخور البركانية التي كان علينا عبورها من وقت لآخر، فقد كانت شمس الصباح قد سخنت الصخور إلى درجة حرارة عالية وضعت جمالنا العمانية الناعمة، في مشقة حادة. خلَّف بعض هذه الجمال شريطاً من الدماء يتساقط من أخفافها المجروحة. وعندما اقتربنا من فوهات براكين أبي الريات اقترح رفاقي أن نتوقف لمعالجة جروح الجمال التي

سببتـها الإبر الحارة الحادة للصخور البركانيـة. ولذلك تركنا الطريق إلى اتجاه بئري أبي الريات وخلدنا لساعة من الراحة والتي اغتنمتها في زيارة الفوهتين الشماليتين. رافـقني كل من ناصر وصـالح إلى قاعـدتهمـا حيث تـخلف صالح لينام، بينمـا تسلقت أنا وناصر إلى القمـة التي ترتفع حوالي ٢٠٠ قدم فوق مسـتوى السهل. كانت القمة فوهة متآكلة متكسرة الشفاه ولكنني كنت مسروراً للسانحة التي مكنتني من جمع حمم لزجة وزبرجد زيتوني وصخـور أخرى من البركان، ومن موضعها الأصلي لدراسات لاحقة بواسطة خبراء المتحف البريطاني.

كنت حينهـا متمكناً من رؤية منظر ممتاز للبـلاد المجاورة بما في ذلك السلسلة الظهرية الرئيسة لجـبال الحجاز وهي منطبقة عند الأفق الغـربي. كان ارتفاعنا فوق مستوى سطح البـحر حوالي ٤٥٠٠ قدم وكانت القمة الوحيـدة البارزة للعيان من جبال الحجاز هي عردة قليلاً إلى الجنوب الغـربي. أشار ناصر إلى اتجاه قرية عقيق في المرتفعـات العليا لوادي رنيـة حوالي رحلة يوم واحـد ناحية الجـنوب الغربي. يرتفع وادي رنية في الجـبال أعلى عقيق بالقـرب من القرية الكبيرة لـسوق رغدان والتي تقوم على سلسـلة ضيقة تسـمى رهوة والتي على جانبهـا الجنوبي يقع منبع وادي تربة. يرتفع وادي كراء وهو رافد للسابق، في منبع تارا بعـيداً ناحية الجنوب الغربي إلى الشمـال من عقيق. ولولا وجود هذه لكان منظر المرتفـعات باهتاً ومملاً ولم نتمكن من تحديد أي من القـمم المألوفة لمنطقة الطائف والتي تقع بعيـداً ناحية غرب الشمال الغربي. ارتفعت بالقرب منا ومن حولنا أفواه براكين الحرة ولكننا لم نر أياً من تلك البـراكين البعيـدة في الخرمة المجـاورة والتي رأيتها لأول مـرة عام ١٩١٧م في طريقي من الرياض إلـى الطائف. وقد ذكـر دليلي البـقـمي في تلك الرحلة أن هذا الحقل الحممي البركاني الواسع يدعى حرة النواصف ولكن لم يكن

لناصر علم بذلك الاسم غير أنه يعرف التفاصيل الدقيقة لكل ما يبصره بصورة جيدة. لقد كانت بالفعل وطنه. أمكننا رؤية ١٥ من هذه الفوهات، ومن أبرزها لسان، وأم رقبة، وزنهار، وعفراء، ولم ينس دليلنا من تربة شعيل اسم النواصف.

فجأة وأثناء جلوسنا على قمة التل نتفرج حدثت ثورة في السهل من حولنا وانتشرت صرخات وصيحات التحذير من مجموعة لأخرى صادرة من رعاة كسولين، حتى امتلأ جو الصحراء بالجلبة. لم يفهم ناصر شيئاً مما حدث، سوى أن خطأ ما قد وقع. ربما بدأت إحدى فرقنا بالإساءة بصورة ما مما دعا العشائر للتجمع بهدف الانتقام. على أي حال، كان من غير المعقول أن نظل حيث كنا في عزلة مكشوفة، وعليه قررنا الالتحاق بصالح الذي لم نجده بمفرده. لقد تم إيقاظه بوقاحة وتحدٍ، ليجد نفسه والبندقية مصوبة نحوه. لقد استسلم بلا شروط وحاول توضيح الموقف للعدو، الذي كان شاباً جميل المحيا والذي اتضح فيما بعد، أنه قريب لناصر. ولذا عند وصولنا للمكان لتأكيد قصة صالح، كان الرجلان يتبادلان حديثاً كأنهم أصدقاء. وانتهى كل شيء، خمدت الأصوات وعادت الصحراء إلى صمتها. أخبر الشاب ناصر بأن والدته تعسكر في مكان ما أمامنا، في وادي غدقة مع أسرة الفتاة التي ستخطب له.

لا بد أن إشاعات الصحراء قد نبهت الفتاة بأن حبيبها في مكان ما بالقرب منها. وعلى أي حال فقد وجدناها وأخاها من العمر نفسه (حوالي ١٥) ومعهما صبي صغير عمره ثماني سنوات، مع قطيع من الضأن والماعز عند الموقع الذي تقاطع فيه طريقنا مع وادي شعيب غدقة. كان هذا عبارة عن مصرف ثانوي بدأ

من فوهة تليه تسمى غديق على مسافة ثلاثة أميال داخل الحرة ولكنها ذات أهمية بكونها الرافد الجنوبي الأقصى لوادي تربة. وهو يجري إلى أسفل تجاه الجنوب الغربي من غديق عبر الصخور البركانية، ويعرج شمالاً على حافته الغربية ليتحد مع شعيب كرا الذي يدخل تربة من أسفل واحتها العظيمة. نستطيع أن نرى الآن تل رنيه الصغير من هذا الموقع الذي يعلم أيضاً الحدود العليا لشعيب كراء على مسافة سبعة أو ثمانية أميال ناحية الغرب من مكاننا، بينما كان الاتجاه العام لدربنا هو الشمال الغربي. يقع الفاصل الفعلي بين نظامي تربة ورنية على بعد ميل واحد فيما وراء مجرى غدقة في سلسلة دقيقة تجري ناحية الغرب عبر ممرنا من طرف الحرة. تصب كل البلاد الواقعة إلى الغرب من هذا الخط، في شعيب البير وعليه، وفي الوقت المناسب في شعيب ضعة ووادي رنية.

لم يغازل ناصر زوجة المستقبل لمدة طويلة لدهشتي، وسرعان ما واصلنا سيرنا على طرق الجمال الضيقة وفي أجزاء صعبة من الصخور البركانية الممتدة بعيداً ناحية الغرب عبر طريق الحج. ارتفع الغبار فوق الإقفار أو تلاحقت حلقاته عبره في حلزونيات غريبة بسبب زيادة الحرارة فترة ما بعد الظهر، ولفترة بدا لنا وكأننا قد تركنا كل علامات الحياة إلى البعيد، خلفنا. حتى مجموعتنا الرئيسة ابتعدت عنا منذ مدة طويلة بعد معالجتهم الجمال، وبقينا ثلاثتنا ناصر، وصالح، وأنا، منعزلين. قمنا بفحص القمم البركانية التي ظهرت في الأفق، أمامنا، الواحدة بعد الأخرى والتي كانت تبدو حيناً قريبة منا، ثم تبتعد على مسافة. وبناءً على ما قاله ناصر، فإن أعلى النقاط في هذا الربع الجنوبي الغربي للحرة كانت عفراء وأبو قنزعة، ولكن لا بد أن تكون هنالك قمم أخرى عديدة بالارتفاع نفسه.

لا بد أنني قد حصرت ما يزيد على عشرين من هذه الفوهات البركانية وعند منتصف وقت ما بعد الظهر قمنا باختراق فرجة مسطحة تفصل هذا القسم من الحرة عن القسم التالي. كان عرض الفجوة حوالي الميل الواحد وتبدوا كأنها متغلغلة عميقاً في حقل الصخور البركانية، من طرفه الغربي. كان سطحها الطموي مرشوشاً بغبار أسود. حينما صعدنا الطرف المرتفع للقسم الثاني، شاهدنا مجموعة قمم أمامنا، تسمى أبا السحبان والتي تقع إلى الشمال الغربي من أبي قنزعة مع سلسلة منخفضة تدعى سريحوات إلى يساره، ومقيعر، وجعله، وأبا الحيات، وكثن، وأخريات مبعثرة أمامنا. كما بدأت أمامنا مجموعة القمم البركانية التي يهبط فيها الطرف الجنوبي لسلسلة جبال حضن فيما يلي وادي تربة ناحية الغرب ليتضمن سهل ركبة العظيم على هذا الجانب. إنها تقع بعيداً ناحية غرب الشمال الغربي. يبدو أن حقل الصخور البركانية ينتهي عند سلسلة بازلتية تسمى مرين إلى اليسار من موقعنا، بينما تقع قمة جبال الحجاز، حبجة إلى الخلف بعيداً، تقريباً ناحية الغرب.

كان السير صعباً في هذا الطريق وكان الجو حاراً وقاطعاً للأنفاس ولكننا وصلنا، قليلاً قبل الساعة الخامسة مساء، إلى فضاء عريض في الصخور البركانية حيث توجد مساحة معتبرة من الشجيرات وبركة ماء تسمى غدير سوقان. كان هذا الموقع، وهذا واضح، مفضلاً لأن يعسكر فيه الأعراب الرعاة، وقوافل الحجاج ذلك لأن السهل تنتشر فيه حجارة نصب الخيم وببقايا نيران المعسكرات ودون ذكر شيء عن المقبرة غير المنتظمة. كان الوقت متأخراً بما فيه الكفاية بالنسبة لنا، لنتوقف، حيث إننا أصبحنا على بعد مسيرة يوم في المتوسط من تربة أقل كثيراً من تلك المسيرة التي بدأت من الطرف المؤثر لبلاد الصخور البركانية الشاقة التي قضينا فيها اليوم كله.

كان المنظر لا يختلف كثيراً عما رأيناه عند قمة أبي الريات الذي لم نعد نراه. بدأنا نرى الكثير من سلسلة جبال الحجاز وهي ممتدة إلى الشمال من قمة عرضه إلى كتلة عالية تسمى مياحن وقمة جبل بيضان في منطقة ناصر لقبيلة الحارث. وتقع بركة سوقان عند رأس منخفض ضحل يسمى قحة عند شريطين عريضين من سهل مكسو بالطمي يحيط به من كلا الجانبين إلى عرض ميلين تقريباً. كان هذا الممر مرعى محمياً (حمى) لأهل تربة وكان به عدد قليل من أشجار الطلح والسرح وعلى إحداها وجدنا عش صقر وفيه ثلاث بيضات. ركز ناصر عينه على موقع في هذا المنخفض حيث يعتقد أنه بالإمكان حفر بئر مغمورة لتأمين ماء دائم إلى جانب المياه الموسمية ولزيادة كمية المياه النفيسة للمعسكر. انحرفنا عن طريقنا لزيارة الموقع المزعوم، مرة أخرى لنعبر منطقة ذات صخور بركانية قاسية، يجري خلالها وادي قحة بعد مغادرته السهل، ويقع الموقع على مساحة بازلتية بيضاء. لم يكن الموقع واعداً بالنسبة لي، كما تصوره خيال ناصر. مررنا بثماني غدران أثناء مواصلة سيرنا على خط مواز للمجرى، على يميننا، وتسمى في جملتها قتمة.

دخلنا مجرى وادي كرا بعد مسيرة ثلاثة أميال عبرنا خلالها دلتا واسعة، كثيفة الشجيرات، عند اتحاد النهر. كان عرض وادي كراء هنا حوالي ١٠٠٠ ياردة مع اندلاق الحافة، غير المتناسق لحقل الصخور البركانية مكونة الجانب الأيمن، بينما كان الجانب الأيسر عبارة عن جدار متناسق من صخور بركانية يملأ الفراغ بينه وبين وادي تربة فيما يليه. كان الواديان هنا متقاربين وكان مجرى كراء مكسواً بغزارة بالأشجار والغطاء النباتي الخفيض والحشائش وبعض الأشجار من سمر وطرفاء، وتنضب وأراك وحلفا، والشري... إلخ، مع بعض النخيل أسفل الوادي والتي

يخترقها مجرى السيل الفعلي الذي يبلغ عرضه مئة ياردة بين جانبين طموبين منخفضين. وإلى الأسفل يضيق الوادي أكثر إلى عرض خمس مئة ياردة بين جدران بازلتية مسطحة تقع فوق الجرانيت الأحمر الذي يمكن رؤيته هنا وهناك عند قاعدة المنحدرات الصخرية.

وصلنا بعد حوالي الميل الواحد، من نقطة دخولنا، إلى المواقع المحتوية على برك المياه التي توجد في بطن السيل، وتكون المياه فيها بعد الأمطار الموسمية قريبة من السطح في كل المواقع ولمسافة معتبرة أسفل وأعلى الوادي. استقرت مجموعة من أهالي بيشة بالقرب من هذه المياه في جوار نخلة منعزلة اتقاء لحرارة الشمس، بينما تمتعت إبلهم بالغطاء النباتي الوفير. لم نزعجهم بل واصلنا سيرنا نحو مجموعة من النخيل، على مسافة، قبل أن نتوقف لننال قسطاً من الراحة منتصف النهار. عيب هذا الموقع أنه يزخر بأسراب قراد الإبل والبقر. كان اتجاه الوادي، عند هذا الموقع، قليلاً ناحية الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي مع وجود منحنى واسع إلى اليسار، أسفل الموقع الذي عسكرنا فيه، وفوق التقائه مع وادي تربة. يقع كل نخيل كراء – يقال إنه ٣٠٠٠ – أسفل ذلك المنحنى على مسافة نصف ميل ويتخلله حوالي اثنا عشر من القصور التي يمتلكها أهل تربة.

صعد طريقنا الآن خارج الوادي إلى منحدر قصير، ولكنه صعب جداً، يكون إلى ناحية شريط الصخور البركانية الذي يفصله عن المجرى الواسع لوادي تربة. انتشرت في المنطقة نصب من الحجارة على الجانب البعيد حيث أمكننا منها رؤية منظر واسع للوادي حتى مصب وادي الخرمة بالقرب من قمة بركان بالاسم نفسه، على مسافة معتبرة ناحية الجنوب الغربي. كان عرض الوادي هنا حوالي ميلين،

وبه مزرعة نخيل صغيرة على البعد نفسه، عكس اتجاه الوادي، ناحية غرب الجنوب الغربي. بدأ الجسم الرئيس للواحة الذي يملأ قلب الوادي كله، في اتجاه أعلى الوادي، ناحية الشمال الغربي، منساباً بعدها إلى أرض رأسية كونها انحناء لجرف بركاني للضفة اليمنى يقع قليلاً ناحية الشمال الشرقي. وقفت على هذه الأرض الرئيسة قلعة قصر شنقل مطلة على منظر عام للواحة كلها، على كلا جانبي المنحنى. كان ثلث حزام النخيل الضخم واضحاً لنا من فوق هذا المنحنى، واختفى باقيها من وراء الجرف، عدا لمحات لرؤوس النخيل من حين لآخر ناحية الالتقاء بوادي كراء وما وراءه، في اتجاه أسفل الوادي. يطلق على كل الواحة، وعلى الوادي حتى نهايته البعيدة حيث يغير اسمه إلى وادي الخرمة عند واحة غريث اسم وادي تربة. غير أن لقراه المختلفة والصغيرة ولقصوره ولمزارع نخيله لكل منها اسمه المميز له. من هذا الموقع أمكننا أن نرى القرية الرئيسة والمركز التجاري لرمدان قليلاً ناحية الشمال الغربي في ساحة واسعة خالية بين النخيل. تقع قرية منيف الصغيرة إلى الشمال منه ومخبأة خلف أشجار النخيل، بينما استقرت قرية شنقل الصغيرة عند أسفل الأرض الرأسية. بينما وقف قصر الشريف رجاء على بعد ربع ميل من الطرف النهائي للواحة تجاه أعلى الوادي. يجري عبر الوادي جبل حضن العظيم مع سهل مشجر واسع بينهما، بينما على البعد، ناحية الشمال الشرقي، وقفت هضبات العرفاء، وعبيدين، إلى الخارج في الحرة.

على طرف الوادي استقبلنا فارس اسمه رشيد أرسله الأمير للترحيب بنا ومرافقتنا عبر الممرات المتداخلة للواحة. مررنا أول الأمر بشريط عريض من حصى ينمو عليه نبات الحرمل ليصل إلى الحافة على بعد ١٠٠٠ ياردة، إلى الأسفل من النهاية العليا للواحة، وحوالي ١٥٠٠ ياردة من عند منحنى شنقل. وجدنا في

هذه المنطقة عدداً من منازل متفرقة مكونة مستعمرة حياة التي يسكنها ملاك أراضي الأشراف ومعهم تابعوهم. يمكننا رؤية قصور برد أسفل هذه المنازل مع اتجاه أسفل الوادي ولكن وفيما وراء مزارع النخيل الغنيـة، والتي تطوق هاتين المستوطنتين فقد وجدنا حزاماً من مزارع مـهجورة ذات جذوع أشجار ميتة وكـثير من أشجار الأثل لعل ذلك نتج بعـضه، من الجفـاف، وبعضـه الآخر من الحرب. رحـبت بنا قطع موسيقية جاءتنا من ناحية أحد منازل الأشراف حيث كانوا يحتلفون بزواج، ومررنا عبر شريط نخيل أكـثر جمالاً، إلى فراغ عريض تقع قرية منيف الصغـيرة وقلعتها المحطمة عند حافته. وقامت قرية رمدان الكبيرة ذاتها فيما وراء ذلك، وعلى أرض مرتفـعة بعض الشيء، وقد دخلناها قـبل الخامسة مـساءً بقليل (الأول من أبريل) لنجد منزلاً قد أعد لسكنـانا، ونجد الأمير نفسه منتظراً لاستـقبالنا. وهكذا انتهت المرحلة ما قبل الأخير للرحلة بسلام بعد مسيرة ١٠٦ أميال من بيشة، ولن نواصل مسيرتنا إلا بعد ظهر اليوم التالي.

تقع تربة على ارتفـاع ٣٨٠٠ قدم فوق سطح البـحر، على مسـتوى الروش نفسها بينمـا كان مجرى رنية عند عبورنا، حوالي ٤٠٠٠ قـدم وعند ملتقى غدقة على دربنا ٤,٣٥٠ قدم. تقع الخـرمة والمعتقـد أنها على مسيـرة يومين، مع اتجاه أسفل الوادي، ناحية شمال الشمال الشـرقي، وموقع التقاء كرا حوالي ثلاثة أميال إلى الأسفل من رمـدان. فيما يـلي هذه النقطة يتصل وادي تربة في جانبـه الآخر بمصرف بحرة وشـعيب سحوبيـه وهو مجرى سيل معـتبر، يهبط عـبر السهل من أخدود في جانبي حـضن ويحتوي على بئر إلى الشمال الغـربي من تربة. تجمعت في هذا الأخدود دوريات جـيش السعوديين في مـايو ١٩١٩م، للزحف التاريخي

على قوة الشريف عبدالله التي تحصنت بثقة مع مدفعيتها ومدافعها الرشاشة في السهل بين رمدان ومنيف وكانت قلعة القرية والنخيل خلفها ضمن محيطها الدفاعي[١].

تبدو القلعة، والأرض من حولها، كأنها المنطقة المحيطة بغرف الموتى، لأنه، منذ ١٣ عاماً انقضت على تلك الليلة المخيفة، لم يزعج أحد نفسه لتنظيف ميدان المعركة بدا القصر كأنه ضريح عام ضخم هزه زلزال. انكمش حسن خر الذيب فزعاً وقد صاحبني لرؤية هذا الميدان الحربي المشهور، وهو يراني أرفع كاميرا التصوير لتصوير هذا المنظر. بالغت الروايات في الحديث عن المعركة ورفعها إلى معركة أدمجدون[٢]. لقد قابل مواطنو تربة الهجوم السعودي بمقاومة عنيفة، وقتل منهم حوالي ٤٠٠٠ بينما قتل من المدافعين ومن جيش الشريف عبدالله ١٦٠٠٠ رجل وهرب ٢٠٠٠ رجل فقط. من الأفضل أن تقسم كل هذه الأرقام على عشرة لنتحصل على صورة حقيقية للمعركة وذلك لأن قوة عبدالله لم تتجاوز ٤٠٠٠ رجل ولا يزيد عدد من هربوا عن ٣٠٠ أو ٤٠٠. امتطى عبدالله وموظفوه مطيهم وهربوا عند انطلاقة الهجوم، وأما الباقون لم يكن أمرهم بأكثر من ذبح لهم من جانب واحد[٣].

---

(١) يشير إلى معركة تربة في ٢٥/ شعبان/ ١٣٣٧هـ . (المراجعون).

(٢) معركة يدعي اليهود والنصارى أنها سوف تقع في فلسطين بين قوى الخير والشر وذلك قبل قيام القيامة. وحسب اعتقادهم فإنه يجب حشد أكبر عدد ممكن منهم قبل قيام المعركة. (المراجعون).

(٣) لم يشارك الملك عبدالعزيز في المعركة حيث قام الإخوان بقيادة خالد بن لؤي وابن بجاد بالهجوم على جيش الأشراف والقضاء عليه قبل وصول الملك عبدالعزيز والجيش المرافق له. ويقال إن الملك عبدالعزيز تأثر عندما شاهد الأعداد الكبيرة من القتلى وأمر بدفنهم. فؤاد حمزة، قلب الجزيرة العربية، ص٣٩-٤٠. (المراجعون).

توليت أمر تخيل منظر المعركة في الصباح. كان معسكر عبدالله، وعلى أحد زواياه قرية منيف الصغيرة وقلعتها، قد امتد فوق سهل حزم الحصوي العريض على امتداد مجرى السيل، ناحية رمدان، التي كانت خارج النقطة المحصنة. كانت المنطقة المحصنة قد خطط لها بعناية دقيقة، حسب قوانين الحرب، وكانت ذات خنادق داخلية وأخرى خارجية وخنادق مواصلات وكل ذلك. نصبت خيام الضباط في أسلوب منظم ولها شوارع، وشوارع مقاطعة بينها. حقيقة، تم كل شيء كما يتطلبه علم العسكرية الذي يدرس في مدارس القسطنطينية بكيفية جعل الموقع حصيناً. يقال إن امرأة حذرت عبدالله من وجود إخوان مثيرين للشبهات في وادي السحوبية، وأن عبدالله كان متحمساً للانسحاب إلى رمدان الأكثر سلامة. ولكن صبري باشا رئيس أركانه رفض مغادرة المعسكر المحصن المثالي وقام بنشر بنادقه ومدافعه الرشاشه بأسلوب محسوب ليعطي الإخوان استقبالاً حاراً إذا كانوا من الحمق أن يهجموا. لا يمكن -على الإطلاق- الاعتماد على ولاء القرويين له، ذلك لأن عبدالله قام بإعدام اثنين من كبار رجالهم الأساسيين بتهمة تبادل المعلومات مع الأعداء وقد ذهب أقرباؤهما إلى الخرمة لإخبار خالد بن لؤي بوضع الأشراف.

لم يكن من شيء يخاف منه إلاَّ النوم وكان النوم هو الذي غلبهم. لقد أروني المكان الذي نصبت فيه خيم عبدالله وشاكر وحمد بن زيد قادة الأشراف الثلاثة. كان المكان كله مغطى بقطع آنية فخارية، فناجين القهوة، غليونات وما شابه ذلك.

يبدو أن الإخوان قد شقوا طريقهم من الخرمة إلى الجزء الشمالي من سلسلة حضن وهبطوا إلى مرتفع من الأرض منعزل إلى مسايل تخرج من مناطق ضيقة

وتنبعج في منطقة تربة. لقد أشرت من قبل إلى السحوبيه ذات البئر المهم في رؤوسها العليا. تم مراقبة هذا الجانب بدوريات خفيفة بينما ذهبت قوة أكبر إلى الجنوب أكثر إلى مسايل شعيب ريحان التي تتحد مع الوادي على مسافة ميلين أسفل رمدان حيث تضيق في ممر تحيط به الصخور يسمى ريع ركبة. تقف قرية عويزج الخلا الصغيرة بين أشجار النخيل، على جانبي المضيق، بينما تقع قرية الأشراف، قصر بن ماحي على مسافة ٥٠٠ ياردة إلى الشمال من رمدان على الحافة الأخرى للنخيل وهي قرية صغيرة بها قصر ابن ماحي. يميل شريط شعيب ريحان إلى المضيق عند قمته في حضن فيما يلي النهاية العليا لواحة تربة والتي تحيط بها على امتداد طولها. هكذا تسرب الإخوان على طول هذا المنخفض تحت ستارة الليل في التاسع عشر من مايو مع سلاح الفرسان السعودي للهجوم الأول الفجائي عند الساعة الواحدة صباحاً، أثناء ذلك، كانت الدوريات المدعمة في مجرى السحوبية تعمل ناحية الشاطئ الأيمن للوادي مما زاد من اضطراب المدافعين كذلك بالإقدام عليهم من الخلف عبر حزام النخيل.

كانت المعركة قد كسبت وفقدت في الظلام، ولكن قلعة شنقل وقصور حياة كانت تقاوم عند الفجر. وباستسلامها أثناء ساعات الصباح دخلت تربة نهائياً وبكاملها تحت سيادة السعوديين. وهرب ما تبقى من جيش الحجاز النظامي بكل سرعته ناحية الطائف لتحذير مكة وجدة.

وصلت إشاعة الكارثة إلى الحكومة البريطانية في وقتها، لتربك علماء العسكرية وخبراء السياسة الذين أعطوا الانطباع قبل شهرين فقط بقناعتهم بأن السعوديين غير النظاميين لن تكون لهم فرصة الصمود أمام القوات المدرَّبة الجيدة الخبرة التي قاتلت مع لورنس.

لا يبـدو أن قرية رمدان الـتي تشتـمل على منازل جيـدة البناء ذات طابقين من اللبن، مرتبة في نظام في مساحة أبعادها ٣٠٠ X ٢٠٠ ياردة، قد تضررت كثيراً على يدي المنتصرين أو حتى أنها هوجمت أثناء المعـركة. تم الكثير منذ ذلك الوقت لصيانة خراب الحرب في مزارع النخيل، التي لا يزال بعضـها في حالة مدمرة، بينما هجرت قرية منيف الصغيرة. يتم الري في الواحة عن طريق السحب للماء بواسطة الجمال من آبار عميقة ذات مياه لا تنضب على عمق ٢٥ قدماً. تم تركيب أعداد كبيرة من مكائن السحب في تربة في السنوات الأخيرة مع نجاحات مـقنعة بزيادة الرقعة المزروعة. كما تساعد السيول الموسمية على المحافظة على ازدهار المستوطنة.

لقد خدم مـحمد بن شهيل الذي عرفـته من قبل، عضواً في مرافـقي الأمير فيصل، مدة ستة أعوام حاكماً على تبـوك قبل حضوره حاكماً أيضاً إلى تربة شهراً أو شهرين قبل زيارتنا. إنه من أبناء قرية المزاحمية تحت جرف طويق وكان رجلاً ذا جاذبية مـعتبرة وذكاء متـوسط. كان بلا شك مضيافاً جـداً دمث الأخلاق وعذب الحديث، وكذلك كـان أهل تربة الذين حضروا إلى حفل الأمير، لتـحيتنا ودودين لطيفين. كـانوا والأمير ابن شهـيل متشككين وممتلئين بالازدراء نحـو الإصلاحات العصـرية المالية والاقـتصـادية التي كانت تجـرب في هذا الوقت في الأحـساء مع إمكانية النظر في تطبـيقها فيمـا بعد على مديريات أخرى. كـانت الشكوى العامة هي أن النظام الجديـد الذي يعتزم تطبـيقه يتـضمن تداخـلاً كثيـراً مع حق المبادرة للحكام والتجار. احتفظ الأمـير بعدد من الحيوانات الأليفة، لبهجـة ولترفيه أسرته مشتـملة على بابون صغير أحضـر له حديثاً من عسـير وغزالتين مستـأنستين جداً وحمل وديع.

تجمع جمهور غفير من القرويين بعد الظهر لوداعنا حين تحركنا عبر ميدان معركة حزم ومررنا بمسلخ محلي كان عبارة عن اختراع جديد، كان المجلس البلدي الأول مسؤولاً عنها، ثم مررنا تجاه مجرى شعيب ريحان الذي اخترقناه بعد ٢٠ دقيقة من الانطلاقة لنتبع درب الحج المطروق من فوق سهل حجري أجرد (حدبة) الذي كان يملأ الفراغ بين حضن والمجرى. يخترق هذا السهل عدد كبير من المنخفضات الرملية الضحلة تسمى مجتمعة «قرينات عضبة» التي تجري منحدرة من سفوح الأول إلى الثاني، وعلى بعد، وصلنا إلى الرافد الواضح وهو شعيب سلمى الذي يبدو أنه أحد رؤوس شعيب ريحان. برغم أن الخط الرئيس لهذا الأخير يجري إلى منبعه الأصلي في قمة عن – غالباً يسمى عانت – المنعزل الذي يقع على الحدود الجنوبية لسهل ركبة.

كان اتجاهنا في معظمه غرباً، وكان خط ريحان موازياً لنا، وعلى يسارنا، على مسافة تتباين من نصف الميل إلى الميل الواحد، بينما تراجعت سلسلة جبال حضن سريعاً ناحية اليمين حتى فقدنا كل أثر لها بسبب الغيم الذي تكاثف أثناء المسيرة. مررنا سريعاً إلى خارج سهل حزم المغلق إلى طريق واسع أجرد يسمى بسطة والذي يمكن اعتباره الزاوية البعيدة الجنوبية الشرقية لركبة. عبرنا فيه بعض آثار دروب السيارات التي ربما كانت لمجموعة الأمير حين وصوله لأول مرة إلى تربة، ذلك أنه لم تزر أية سيارات تربة منذ ذلك الحين. وصلنا إلى شعيب بسطة دون حوادث، اللهم إلاَّ من أرنبة تطاردها كلبتنا السلوقية قطنة حيث عسكرنا لقضاء الليل بعد مسيرة قصيرة نسبياً غطت ثمانية أميال. ينحدر هذا المجرى، الهابط من خشم شمان الذي هو أقصى أرض رئيسة جنوبية لقمة حضن إلى أسفل

مروراً برابيتي محرك وجلحة كل منهما على مسافة ميل أو يزيد قليلاً من معسكرنا، لتتحد مع شعيب ريحان على بعد ميل واحد ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا. لذا فإن سهل بسطة يعد أرض مثلثة يحيط به شعيب بسطة وشعيب ريحان من جانبين. تقع أرض شمان الرئيسة ناحية غرب الشمال الغربي من معسكرنا على مسافة بعض أميال، وكان اتجاه شعيب بسطة نحو جنوب شرقي تقريباً. انتشرت عدة قمم بركانية على المناظر العامة في جوارنا ولكن حد الغيم مدى رؤيتنا ناحية الأمام.

كان دليلنا للمسيرة من تربة إلى مكة يدعى شعيل بن مرزوق رئيس فخذ السحيان لقبيلة البقوم التي يقع مركزها عند آبار بريم. كان معه بقمي آخر يدعى ناشر بن راضي من فخذ الكلبة. فقد وصلت بالمناسبة قافلة سعيد بن كدسة المكوَّنة من ١٢ جملاً، والتي غادرت بيشة عن طريق رنية عصر اليوم نفسه الذي غادرناها فيه، إلى تربة قبل حوالي ثماني ساعات من وصولنا، وكانت لا تزال هناك حين غادرنا الموقع. ترك ابن كدسة وجماعة النسوة التابعات له القافلة قبل وصولها إلى تربة ليذهبوا إلى مكة مباشرة تاركاً مساعديه للتخلص من أية بضاعة جاء بها لسوق تربة. ربما كان طريقه الذي سلكه هو الذي يقود من الخرمة عبر بريم.

كانت الرؤية محدودة لمسافة ميل واحد بسبب الغيوم حينما واصلنا مسيرتنا عند الساعة السادسة صباحاً، في الثالث من أبريل - عيد ميلادي السابع والأربعون - تحت سماء مغطاة بالسحب ونسيم خفيف بارد، يهب علينا من جهة الجنوب الشرقي. تطور الغمام بعد ساعتين إلى ضباب اسكتلندي[١] سميك ورطب

(١) نسبة إلى مقاطعة اسكتلندا البريطانية. (المراجعون)

لم أر مثله في الجزيرة العربية، اللهم إلاّ أثناء الأيام القليلة الأولى لرحلتي من الأحساء إلى الربع الخالي. كانت طيور الخطاف تحلق على انخفاض شديد فوق الصحراء، وكان هنالك عدد قليل من آكلات النحل في ممر مكسو بالشجيرات، ما وراء خط شعيب بسطة. تجري ثلاث مسيلات تصريف تسمى المعترضه عبر هذا الممر من الأرضية الوعرة عند رأس شمان للاتحاد مع مجرى ريمان أعلى رابية قليب ريحان الصغيرة في بطن الوادي، على مسافة ميلين، من خط سيرنا. تم حجز كل هذا السهل المشجر، فيما يلي بسطة لرعي حيوانات تربة وغير مسموح للقبائل البدوية للرعي فيه، غير أن هذا المنع لا ينطبق على حيوانات المسافرين. توجد مساحات كبيرة يكسوها نبات العشرق -أيضاً يسمى سنا- إلى جانب الغطاء النباتي الصحراوي العادي، ومن هذا النبات يتم الحصول على المُلَينّ المشهور المعروف باسم سنامكة.

تنتهي منطقة المعترضة فجأة في أرض منبسطة حجرية سوداء ذات خاصية بركانية، تمتد من أرضية رأس شمان التي أصبحت الآن على يميننا على بعد ميل واحد، إلى روابي أمهات حمار على بعد ميلين فيما يلي مجرى ريحان. مررنا سريعاً بين قمتين بركانتين بعد دخولنا هذه الأرض، تسميان أعلى فاس وسفلى فاس عبر مجرى شعيب فاس وهو رافد آخر لريحان. كان أحدهما (الأسفل) على يسارنا على هيئة مخروط كامل له صفحات ناعمة، ترتفع إلى حوالي ٢٠٠ قدم فوق السهل. وكان الآخر مماثلاً له غير أنه غير تام الشكل. سرنا بين البركانين التوأمين بعد عبورنا لمجرى فاس ويسميان نواسيله لنصل إلى معتق التي تقع على حافة سهل طيني عليه شجيرات قليلة تبدو كأنما أتلفتها رياح الصحراء. تقع كل الآثار الرملية ناحية غرب الشمال الغربي بالنسبة للشجيرات الصحراوية، مما يفيد

بأن الرياح السائدة في هذا الموسم كانت من جهة شرق الجنوب الشرقي. يظهر، هنا وهناك بروز بازلتي من خلال الأرضية الطينية، التي لا تزال تحتفظ في بعض أجزائها بالآثار القديمة للسيارات التي كانت إما متجهة إلى تربة أو فقط لمجرد الخروج للصيد. حضرت في خريف عام ١٩٣٠م أكثر من مرة إلى عَنْ أثناء رحلات الصيد الملكية. ومنذ ذلك الحين كان من النادر رؤية أكثر من غزال واحد منعزل في سهل ركبة.

انحرفنا تدريجياً ناحية مجرى ريحان الذي يقع الآن بالقرب من الجانب القريب لسلسلة منخفضة تدعى شبيكة وسرنا فوق بطنه لفترة إلى حين حتى وصلنا إلى بقعة تكاد تكون على رأس الوادي، عند نهاية السلسلة حيث تصطدم مع سلسلة أخرى تسمى خرشاف من جهة الجنوب. وعليه فإن شعيب ريحان لا ينطلق في عَنْ حقيقة، والذي بدأ الآن يلوح في خفوت عبر الضباب. يسمى كل هذا الطين والسهل الرملي عند رأس شعيب ريحان باسم بحيرة ويكون طرف منطقة البقوم في هذا الاتجاه الغربي. بعد هذا المرتفع وصلنا سريعاً إلى منخفض ضحل مشجر يسمى سلوان، يمثل شريطاً محايداً يفصل مناطق البقوم عن عتيبة. ولهذا المنخفض أهمية مائية. يقع رأسه على بعد ميلين عنا في الأرض الوعرة التي تربط سلسلة شبيكة وسلسلة خرشاف مع منحدرات عَنْ الخارجية عَنْ (أو ساق عَنْ) ومن هذه النقطة، فإن المنخفض يجري في اتجاه شمال شرقي إلى رأس أرض شمان المجاورة حيث يجري على امتداد الجانب الغربي لحضن ليتلاشى في الصحراء إلى الشمال الغربي من بريم. لا يوجد أي سجل أو عرف يفيد بأن سيوله تصل أبدًا إلى أي من الروافد المعروفة لوادي الرمة تماماً، فهو مثل مجرى تربة. الخرمة (وادي سبيع) الذي يتلاشى في عرق سبيع الرملي ولم يعرف عنه أبداً

أنه وصل مجرى رنية أو أيًّا من المصارف الرئيسة لوسط نجد. ظن شعيل أن سلوان ينبسط بعد مجراه عبر حضن حول طرفه الشمالي تجاه شعيب اقتان الذي ينساب إلى أسفل ناحية المويه أو ربما في شعيب جرير. يقع الفاصل المنخفض بين سلوان وريحان على ارتفاع ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، بينما ينطبق الاسم السابق وخاصيته المحايدة بشكل مماثل على شريط السهل الرملي الذي يقع بين المجرى وهضاب عَنْ الذي تحدد حدوده وحدود عتيبه سلسلة بازلتية منخفضة.

تحولت الغيوم إلى عاصفة ترابية كريهة وأخذت تضرب وجوهنا ونحن نسير إلى الأمام نتلمس طريقنا خلال الضباب والذي دفع دليلنا إلى أن يطرح جانباً فكرة البحث عن عَنْ. مررنا بقطيع مبعثر من جمال سوداء راعية، كأنها أشباح داكنة في الضباب، يمتلكها قسم الشلاوي لقبيلة بني الحارث الجبلية الذين يسكنون منطقة نريسة –بيضان. أصبحنا قريبين من نهاية سهل ركبة وقد صدقوا في اسمه هذا مع سهل سيلا الوعر الذي ينحدر إلى أسفل هذا الموقع من بلاد بني الحارث. ربما يعد مجرى سلوان حداً جنوبياً لركبة بين شمان وعَنْ وفي هذه الحالة يبدو أن كل ركبة ستكون منطقة عتيبة وكل حضن بالمثل سيكون للبقوم. بدأت قمة سلسلة عَنْ تظهر شاحبة خلال الضباب حين عبرنا مجرى حمضة المتوسط المنحدر من سفوحه ناحية الشمال، ليصل إلى الآبار الأربع أو الخمس التي تكون مشرب عَنْ في خليج يشبه ثمار القرع، داخل انثناء للسلسلة التي ترتفع قممها السوداء إلى ٤٠٠ أو ٥٠٠ قدم فوق مستوى منطقة الآبار.

يطلق اسم عَنْ على مواقع الشرب وعلى الأخدود الذي يقع فيه بينما يطلق على التل اسم ساق عَنْ أو باختصار ساق، وهي كلمة تعني «فخذ» تستخدم عادة في وصف معالم التلال. هنالك ساق آخر يميز بأنه ساق حضن الذي يعلِّم المنفذ

إلى ركبة لطريق يـخترق سلسلة حضن من غريث المجـاورة. يصل طول ساق عَنْ وهي سلسلة بازلتية مزدوجة إلى الميلين منحدرة تدريجياً على جانب واحد إلى قمة بركان مرتفع يسقط على الجـانب الآخر في شكل سلسلة من الحزوزات تنتهي عند مسطح صخري خشن. كانت كل الآبار مبطنة بقطع البازلت في شكل مستطيلات أبعـادها ٣ ×٢ ياردة اندفنت اثنـتـان من هذه الآبار بركـام السـيـول وهي الآن لا تستخدم، واحتـوت البئر الثالثة على الماء، ولكن حالتها ليـست جيدة، وبئر رابعة لم أرها، على نفس الحالة، أما البئر الخامسة فكان استخدامها منتظماً وتحتوي على كمية كافية من مياه ممتـازة. يسحب رعاة الشلاوي الماء من هذه البئر لمعسكرهم في مكان ما مـجاور، بينمـا، عن قريب، كـانت هنالك فرقـة صغيـرة من أهل تربة يحتـمون من العاصفـة في طريقهم إلى الطائف لأجل الحج. شاركنا رئيـسهم في تناول غـدائنا المكون من الحـنيني[١]، وبعـد ذلك ذهبت إلى ظل أجنـة تنضب لاستمتع ببـراد شاي وعلبة حلوى راحة الحلقوم أحضرت من بيـشة. لقد كان من الممتع لي، بما فـيه الكفاية، أن احـتفل بعيد مـيلاد، إلى جانب الطقس، غـير أن رفاقي كانوا يشكّون بعض الشيء في حقيقة عمـري، قال سعد: إنه اعتقد أنني قد بلغت الستين.

واصلنا سيرنا، بعد حوالي ساعتين من الاستمتاع بهذه الدعابات، قليلاً ناحية الشمال الغربي فـوق الضواحي الجنوبية لركبة وهي عبـارة عن سهل رملي منبسط تكسوه أعشاب قليلة جافة. هطل مطر خفيف، من قطرات قليلة، خلال الليل في شعب بسطة وهطل مطر أكثر مبـاشرة بعد بداية المسيرة من عَنْ. بدأت الرياح تقل

(١) أكلة نجدية شتوية تعد من البر وتخلط مع السمن والتمر منزوع النوي. (المراجعون)

إلى حد ما مع المطر، بينما بدأت أشعة الشمس في ضعف تشق طريقها عبر السحب الكثيفة. لم تكن الأمطار خطرة أبداً، برغم تكرار هطولها عدة مرات خلال فترة ما بعد الظهر. وواصلنا سيرنا بانتظام فيما بدا لنا أنه أحسن يوم سرناه منذ مغادرتنا الهفوف باستثناء بعض الأيام التي كان السير فيها أمراً مفروضاً في مناطق عديمة الماء في الربع الخالي. قطعنا ٢٠ ميلاً خلال الصباح إلى عَنْ – سبعة وعشرين ميل ونصف من رمدان – كما غطينا اثني عشر ميلاً ونصف الميل أخرى بسيرنا إلى ما بعد الغروب من عَنْ إلى وسق عقيلة حيث عسكرنا لقضاء الليل كان إجمالي مسيرة هذا اليوم اثنين وثلاثين ميلاً ونصف الميل وكانت هذه مقنعة جداً لنا إذا اعتبرنا حالة جمالنا. ولا تزال اقدامها ضعيفة بعد حرارة الحرَّة وعانت الكثير بسيرها فوق المسافات الحصوية والأجزاء الصخرية من السهل.

دخلنا واخترقنا بعد ثلاثة أميال إلى ما وراء عَنْ إلى مساحة عريضة من بلاد رملية، تخترقها منخفضات عديدة ضحلة تسمى مداهن وينتشر فيها شريط من سلاسل منخفضة تسمى حبيل وحزيميات. وعبرنا عند النهاية البعيدة وعلى مسافة ٣ أميال، منطقة جدا أو الطريق النظامي للجمال الراعية الذي ينطلق من مراعي ركبة إلى مساقي شريعي حوالي عشرة أميال إلى الجنوب الغربي في وادي عوقة أحد التصريفات الرئيسية لسفوح الجبال بين ركبة والجبال. يقع بئر عوقة على بعد أميال قليلة جنوب شريعي في المجرى نفسه مع بئر آخر تسمى نير على مسافة ٥ أميال. يجرى المجرى من الجنوب إلى الشمال ويبدو أنه في نهاية الأمر يصل إلى شعيب خرايج الذي يخرج إلى سهل ركبة على بعد ٥ أميال إلى ما بعد موقع معسكرنا في وسق عقيلة أو (وسقان عقيلة). ينحدر كل من السابق والمداهن وقد سبق ذكرهما، إلى السهل ويصبان بعده في مجرى سلوان والذي يكون شعيب

خرايج أحد روافده الفعلية. انتشرت مجموعة من الكتل البازلتية والروابي البازلتية حول طريق وسقان عقيلة وتسمى كلها مجتمعة رضيمات وذلك لأهم سماتها وهي تلك الكتلة العالية التي تسمى رضيمة حيث عسكرنا بالقرب منها. وأحد هذه الكتل واسمه عقيلة قد أطلق اسمه أيضاً على أحد مجاري الوادي.

استلقيت للنوم بعد استمتاعي بالشاي وحلوى راحة الحلقوم، بعد يوم مرهق مصحوباً بالرمال والرياح. تم إيقاظي على كل حال، عند الساعة الثامنة مساءً لتناول العشاء، الذي تكوَّن من أرز فقط لم يحضره إلاَّ القليل من رفاقي. لقد التهموا بنهم الحنيني عند الغداء وفضلوا أن يناموا بدلاً من وجبة عشاء لا لحم فيها. كان زايد واحداً من أولئك الذين شاركوني العشاء ولاحظت مع بعض التعجب أنه أصبح أكثر وداً لي، باطراد وأكثر تدللاً، حينما اقتربنا من نهاية رحلتنا الطويلة معاً. مسكين زايد لا بد أن ضميره قد عذبه حينما فكر في دوره بالمؤامرة لاغتيالي في شنة بدلاً من مواجهة الرحلة عبر القفر عديم الماء. لم أسمع تفاصيل القصة إلاَّ بعد سنوات لاحقة، وكيف أنهم وبعد نقاش طويل قرروا عدم المخاطرة بإغضابهم لابن سعود وحنقه عليهم. كان واحداً من أبطال الحدث المشهور والذي بناءً على قول أمير تربة كتبت عنه جريدة أم القرى كلمة مختصرة مبنية على تقرير ابن جهامان والباقين الذين تركونا في نايفة للعودة إلى الهفوف حيث بعد حين – في ١٤ ذي القعدة أو مارس ٢٢ – وصلت فرقته بسلام. زارني زايد بعد سنوات لاحقة في الرياض في مساء يوم لرحلة كان يشرع بها للبحث عن الرقيق في منطقة عمان وطلبت منه أن يحضر لي حماراً عربياً برياً والذي يقال إنه موجود بالفعل في منطقة جبل حفيت، ولكنه لم يعد بالمرة من تلك الرحلة لأنه تورط في ثورة في أبو ظبي وقد اغتيل بوساطة المتمردين حينما اقتحموا قصر مضيفه.

كانت السماء صافية في اليوم التالي – الرابع من إبريل – مع جدار من سحب بعيدة حولنا من كل جانب، وقد ذهب الغيم وأبردت أجسامنا إلى العظم رياح جنوبية شرقية باردة، حينما امتطينا جمالنا عند الساعة ٥,٣٠ صباحاً، لمسيرة أخرى طويلة كالسابقة لها تماماً. كان السهل الرملي تنتشر فيه أشجار العراد الميتة من موسم سابق، والتي ظهر وسطها غطاء نباتي ربيعي جديد، مما أدى إلى ظهور مساحات خضراء في الرمال والحصى التي سرنا فوقها.

مررنا بما يقدر عدده بدسته خيام في المنخفض الضحل لرعاة من عتيبة معهم جمالهم وماعزهم ترعى من حولهم.

عبرنا بعد ذلك شعيب شبينة ثم دخلنا بعد مسافة ميل واحد إلى الشريط العريض الشجيري لشعيب خرايج نفسه، ثم توقفنا بعد عشرة دقائق عند الآبار الثلاثة للسقي. كانت هذه الآبار جيدة البناء، وهي موزعة على مسافات متباعدة تقدر بخمسين ياردة على بطن السيل الحصبائية، وكان قطر فوهة البئر ستة أقدام مبطن بالجرانيت إلى مستوى الماء عند عمق ثلاثين قدماً. سحبنا الماء من البئر الوسطى وكانت الجمال عطشى بشكل مدهش علماً بأنها قد سقيت الماء في تربة وأن الطقس كان بارداً. كان شعيب خرايج أول وادٍ حقيقي قابلنا في منطقة ركبة، وكان يجري من الشمال الغربي إلى الشمال الشرقي عبر السهل متجهاً إلى سلوان. تقع قرية كلخ ونخيلها على بعد خمسة أو ستة أميال، عكس اتجاه الوادي في السفوح التلالية، حيث كان موقع المعركة بين السعوديين والأتراك في النصف الأول من القرن التاسع عشر. تقع قرية بسل ذات النخيل ومزارع الفواكه في شعيب خرايج على بعد عشرة أميال ويليها، وعلى بعد ميلين، قصور ومزارع قرية المضللة.

اخترقنا شريطاً عرضه ميل واحد، لغابة طلح، فيما وراء خرايج حيث حاولنا أن نصطاد أرنبين ولكنهما تركا كلبينا السلوقيين وراءهما بعيداً في المطاردة التي تلت. كانت الأرانب البرية في مناسبات كثيرة وخلال اليومين الآخيرين تخرج من مخابئها ولكن لم نتمكن من اصطيادها. خرجنا من أرض الغابة إلى سهل رملي كثيف بأشجار العراد والدريمة تاركين كتلة الجرانيت صُبع بعيداً إلى يسارنا واقتربنا تدريجياً من السلاسل المنخفضة المبعثرة لأبرق. عبر طريقنا مجموعة دائرية من صخور ذات قطر يقدر بعشر ياردات والتي قد تكون ظاهرة طبيعية ولكنها تبدو مشابهة بشكل مثير لأضرحة ما قبل التاريخ لقدماء الوثنيين. كانت هذه الأرض الوعرة، التي تقع بين سلسلة جبال أبرق وهضبات أبو شحم ناحية الغرب تسمى الشط دخلنا بعدها منطقة ذات شجر تسمى سر والتي كانت منخفض تصريف ضحل مكونة جزءاً من وادي شعيب جفار وهو رافد آخر لسلوان الذي يتصل به بعد مروره ناحية الشمال من المعلم الواضح لتل برث في وسط ركبة.

لقد هبطنا في هذا المجرى أسفل أكثر مما كنا قد قصدناه، وذلك لأن شعيل قد أهمل اتباع ممرات الإبل التي تقود إلى موقع الشراب عند الآبار. ولكننا صححنا هذا الخطأ، وذلك باتباعنا للمجرى لمسافة ميلين إلى حيث مكان الآبار الثلاثة الشبيهة بتلك التي مررنا بها في خرايج والتي تقع عند دلتا صغيرة كوَّنها رافدان صغيران هما أبو راك ولوا من جهة الغرب والجنوب الشرقي بالتتالي. كان المجرى محاطاً حتى هذا الموقع، بشواطئ متآكلة جداً من جرانيت رمادي وعليها آثار سيول حديثة. يجري الوادي فيما وراء الآبار ناحية السفوح التلية إلى قرية أبلة على بعد ستة أميال. وتقع على مسافة قصيرة أمامنا آبار جليل بينما توجد أسفلنا على مسافة خمسة أو ستة أميال ناحية وادي برث وعميقاً في سهل ركبة آبار صدمة

وهو مصيف محبب للملك والأمراء خلال رحلات الصيد. تقع إلى الشمال من أبلة قرية ونخيل أخيضر في مجرى سيل يسمى شعيب الثعالب وهو أقصى الروافد ناحية الجنوب لوادي العقيق العظيم الذي يجري من جوار الطائف ليمر خلال مركز عشيرة المهم على طريق مكة – الرياض، ومباشرة بعد ذلك إلى المدينة. لقد سبق أن قمت بزيارة الأخيضر في ٢٤/ ١٢/ ١٩١٧م، في طريقي إلى الطائف قادماً من الرياض، وسوف أقوم بزيارتها مرة أخرى قريباً. يعد شعيب جفار آخر أودية سلون الخصبة في هذا الجزء من سفوح الحجاز.

ظهر لنا موقع هضبة الأخيضر ناحية الغرب، بعد مواصلتنا للمسيرة من الآبار، حيث تمازحنا عدة ساعات أثناء تناولنا الغداء ولكي ندع الجمال ترعى. بدت على ناقتي النعرية ذلك الحيوان الرشيق الذي حملني على امتداد معظم الرحلة الطويلة، علامات الإرهاق والتعب، وقد تأذى كثيراً من الأجزاء الصخرية، التي جرحت أقدامه. كانت الشمس تحاول جاهدة أن تخترق السحب والغيوم، التي بدأت تؤثر مرة أخرى على مدى الرؤية لدرجة كبيرة. كذلك كانت الرياح الجنوبية الشرقية تهب في عنف، ولكن الظروف بصفة عامة كانت ألطف مما كانت عليه في اليوم السابق. واصلنا السير إلى فترة فوق درب متموج حجري، عليه شجيرات العوسج والعراد وكلها تقريباً كانت ميتة. كانت هذه البلاد بصفة عامة مألوفة لي وقد رأيت الكثير منها أثناء رحلات القنص مع الملك في خريف عام ١٩٣٠م، برغم أنني لم أزر الأخيضر بالفعل في تلك المناسبة.

انحرفنا تدريجياً، بعد مسيرة ثلاثة أميال، ناحية السفوح التلية الخارجية لنصل إلى الأخيضر والتي كانت أشجار نخيلها مصطفة على الجانب الأيمن لرافد من روافد شعيب الثعالب، إلى حيث المجرى الموحد، حيث تقوم قرية صغيرة تسمى

دعليب. يجري مجرى الثعالب من هذه النقطة إلى أسفل ليتحد مع وادي العقيق في سهل ركبة. تتبع لقرية الأخيضر نفسها قريتان صغيرتان كل منهما مكونة من ٣٠ منزلاً ومن قصر جذاب البناء، هو ملك لأحد الأشراف، أقامه على قمة هضبة. امتدت أشجار النخيل إلى مسافة معتبرة فوق المجرى، ولكنها بصفة عامة كانت مهملة، بينما كان المجرى وما جاوره مغطى بمساحات زراعية ذات سدود للإمساك بمياه السيول. مررنا في الطريق على قطعان كبيرة من ضأن وماعز، ترعى خارج القرية، والتي وجدنا القرويين فيها يغربلون الذرة، محصول ربيعهم الأخير. أكملت قصور قليلة المنظر بتخللها لأشجار النخيل في هذا المجتمع الصغير يملكها العصمة التابعون لقبيلة برقا العتيبية، كما بدأت في الظهور القريتان التوأمان صلبا من خلف سلسلة أبلة أعلى أبار جفار على مسافة ميل واحد ناحية الجنوب الشرقي. كان سكانها من العدوانين مجموعة قبلية قريبة لبرقا بينما كان أهل كلاخ من النفعة، من برقا أيضاً.

نمر الآن عبر شعيب الثعالب الرملي الذي يجري من الجنوب الغربي عبر السفوح التلالية إلى آبار مبعوث إلى الشمال منا تقريباً في ركبة ومنها إلى العقيق. وصلنا بعد ذلك إلى قرية عرفة الصغيرة، بعد صعودنا لمنحدر سهل ولكنه كان خشناً من جرانيت وبازلت. تقوم القرية على أرض مرتفعة بين حقول لأشجار نخيل مبعثرة. كان بعض القرويين منهمكاً بمساعدة زوج من الثيران ولوح من خشب ثقيل بصيانة السدود استعداداً للسيول التالية. برزت قلعة مهيبة قديمة -لعلها تركية- فوق الأرض المرتفعة وتشرف على القرية وما جاورها، غير أنها تبدو في حالة خراب. واصلنا السير فوق ممر صخري مكسر فيما يلي القلعة، حفرته

مجاري ضحلة لمسايل عديدة، كلها تتجمع في سهل ركبة لتدعيم وادي العقيق. تسمى هذه المنطقة مشارك وفي وسطها قطعنا الطريق الواضح للسيارات الذي يصل بين الطائف وبريم والخرمة. بعدها وبسرعة اجتزنا طريق السيارات الذي يصل الطائف بعشيرة والذي يتفرع من طريق بريم إلى مسافة ميل أو ميلين إلى الغرب من الموقع الذي عبرنا منه. عدنا مرة أخرى إلى شبكة المواصلات في وسط شبه الجزيرة العربية غير أن درب الجمال القديم للحج تعرج عبر السفوح التلالية الصخرية على امتداد المسايل التي أحدثت خدوشاً بتموجاتها أثناء طريقها ناحية السهل إلى الأسفل.

يمكننا الآن رؤية بعض الكتل الجرانيتية الكبيرة على طريق الطائف – مكة الرئيس في جوار عكاظ الذي كان مشهوراً على مسافة بعض الأميال إلى اليسار، غير أن طريقنا تواصل عبر المجاري الكثيفة الأشجار لنظام حوض مشارك، إلى أن وصلنا بعد عبورنا لدروب الإبل التي تقود إلى آبار سليطينة عند قاعدة كتلة جرانيتية ضخمة إلى بئر سهلوج الواقعة داخل مجرى رملي عريض ومشجر، والذي ربما كان الشريط الرئيسي لتصريف عقيق. عسكرنا هنا لقضاء الليلة برفقة مجموعة صغيرة من حجاج بيشة والذين غادروا أوطانهم قبل ٣٦ ساعة سابقة لمغادرتنا نحن للروشن. زار بعضهم معسكرنا لتبادل الأخبار مع فناجين القهوة، وكانوا سعداء لمعرفتهم أن الجانب الرئيس لقافلة ابن كدسة قد وصل تربة بسلام. أما عن الحرس الأمامي فلم يعرفوا عنه أكثر مما عرفنا نحن، حيث إنهم لم يتحصلوا على أي أخبار عنهم من رعاة سهلوج. شاركونا أيضاً في العشاء، حيث أن مجموعتي قد استعدت لذلك بشرائها خروفاً أثناء الطريق، وقد كانوا في عجلة

شديدة لـلأكل، مما دفعهم إلـى تقديم الطعام وهـو نصف مطبوخ، صـعب جداً، وغير مثيـر للشهية. كانت عرض مجرى سـهلوج حوالي ١٠٠ ياردة، منجرفاً بين أجمات كثـيفة من أشجار الطلح. كان البئـر في وسط بطن المجرى الرملي مبطنة بحجارة جرانيتية وقطرها حوالي ستة أقدام وتحتوي على مياه وفيرة من نوعية ممتازة وعند عمق ثلاثة قامات.

واصلنا السيـر عند الساعـة السادسة صـباحاً، بعـد ليلة لطيفـة ذات سحب ولكنهـا كانت خـاليـة من الرياح، وذلك في اليوم الخـامس من أبريل وللمـرحلة الأخيرة من رحلتنا، التي بدأت من الهفوف في السابع من يناير. كان هو اليوم ما قبل الأخـير من ذي القعـدة وقد أنهينا خطتنا للوصـول في الوقت المناسب للحج حيث لا تزال هنالك عشرة أيام مـتبقية. كان الصباح منعـشاً، مع إحساس بالعلو في الجو، مع شـقشقة الطـيور في هذه البلاد كثـيفة الأشـجار، وكان ذلك متـعة للأذن. كان كـل شيء على ما يرام إلاَّ بعـد عشر دقـائق من بداية المسـيرة، حين بركت ناقتي النعرية تحتي، وقد بدت عليها علامات الإرهاق وبكل صعوبة استطعنا دفعها للوقـوف على رجليها. لقد كانت مرهقة جـداً، مما دفعني لركوب أخرى، وتركها تسير بلا راكب. ولكنها كانت ذات قلب مكسـور ولم تستعد العافية أبداً، وماتت في الطريق إلى الرياض، بعـد انقضاء الحج ليزداد حزن عـبدالله بن جلوي الذي يعدها من أفضل أصول السلالات التي يملكها.

وصلنا إلى طريق مكة – الطائف للسيارات بعـد مسيرة صعبـة ولمسافة ميلين، وعبرناه عند تقاطع الرياض، على مسافـة بضعة أميال لندخل إلى وادي صعب بين تلال متداعية وسلاسل من جرانيت أحمر. يقع تل سليطينة وبئره إلى الجنوب منه،

على مسافة نصف الميل إلى يسارنا حينما ضربنا مسيرتنا عبر التلال لنصل إلى وادي السيل الصغير. واصلنا سيرنا فوق رمال خشنة جرانيتية والتي يوجد الماء فيها تحت السطح عند عمق ستة بوصات فقط، خلال موسم السيول. وتكون هذا المجرى من مسافة إلى أعلى، وبالقرب من تل صخري يسمى رجيفه باتحاد لنصف دستة من المسايل اللطيفة في خلاء أرضي واسع. مررنا بقبر مهيب لرئيس قبيلة كانت مزخرفة بصخور بيضاوية الشكل وبحجر رئيس من جرانيت أحمر. يجري مجرى السيل الصغير بعد هذه النقطة في العديد من البحيرات السيلية ماراً بعشة لأحد الرعاة كانت محطمة. كان الارتفاع هنا حوالي ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وسرعان ما وصلنا إلى عدد آخر من العشش المهجورة مع وجود علامات لزراعة المدرجات حولها، ولعل هذه كانت مزارع قديمة. يوجد هنا بئر تسمى عنبات ولكن السيول حطمتها. تسمى العشش المحطمة وهذا الفرع من الوادي باسم أثيرية. لا تزال هنا شجرة نخلة على قيد الحياة، إلى جانب كمية من الشجيرات البلميط (النخيل الصغير) وغطاء نباتي متضمناً الزعتر وغيره من النباتات العطرية، وكان هذا هو الموقع الذي نزلت فيه أو قريباً منه، في عام ١٩١٧م في طريقي من الطائف إلى جدة عن طريق درب الجمال المباشر إلى السيل. لم تكن هنالك في تلك الأيام طرق سيارات وكانت كل الحركة بين الطائف ومكة تمر بهذا الطريق. وبلا شك فإن أثيرية قد انتعشت بكونها محطة وقوف في هذا الطريق.

كان يمكننا الوصول إلى السيل في يسر وبسرعة على طريق السيارات عند النقطة التي عبرناه فيها. ولكن كان لي سببان وجيهان على إصراري على الطريق الأطول عبر مجرى السيل الصغير: أولاً: لم تسنح لي الفرصة لاستعادة خطواتي الأولى في هذا الجزء من مرتفعات الحجاز، وكنت متطلعاً بصفة خاصة لأزور مرة

أخـرى ممر ريع المنحوت المهـم، وأن أتتبع طريقي الخـاص من هناك إلى السـيل. ثانياً: تمنيت أن تسنح لي الفرصة للكشف عن الصخور حول سيل غربان باحثاً عن بعض النقـوش التي شـاهدهـا تشـارلز داوتي عند مـشـارف نهـاية رحلتـه. كنا مستعـجلين للوصول إلى السيل عندما مررت بهذه البقـعة عام ١٩١٧م قبل حلول الظلام، وكان الظلام شديداً حينها، وقد تعذر معه رؤية المناظر الطبيعية بالتفصيل.

يقع أول هذين الهـدفين على بعد ميـل واحد أمامنا، في مـسيل أثيـرية وقد وصلنا إلى أول ردهاته -وهي منحوتة- خـلال ١٥ دقيقة. إنه ممر طبيـعي جزئياً، وصناعياً في الجـزء الآخر، يخترق السلسلة المنخـفضة التي تكوّن الضفـة اليسرى لشعيب أثيرية. كان عرض جزئه الأول لا يزيد عن خمس ياردات مع رصيف من الواح غيـر محكمـة القطع من جرانيت وأقسـام من حين لآخر من جـدار مبني، وذلك ليحـول دون انهيار جانبي التل فـي الممر. يستمـر الرصيف إلى طول ٢٥٠ ياردة عبر الممر المتسع في لطف، والذي ينفـتح في منحدر صعب إلى قمة السلسلة -٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر-. هبطنا من هنا في انحدار شديد إلى ممر تم نسفه جزئيـاً في الصخـر والذي جعلت له حواف في الجـروف التي ترتفع إلى ٣٠٠ أو ٤٠٠ قدم. كانت الأرضيـة مرصوفة بألواح تشبه الاردواز على الحـافة وعليها آثار تآكل واضحة بسبب السيارات ذات العجلات -لأن الأتراك قد عبروا هذا الطريق، وهو الوحيد المناسب في تلك الأيام- لنقل المدفعية والسيارات إلى الطائف. كذلك استخدمه الشريف عبدالله لغرض مماثل أثناء حصاره للطائف عام ١٩١٦م.

ينتهي الطريق النازل بعـد حوالي ٣٠٠ ياردة في مسيل مـتلوٍ بلطف، خلال السفوح التلية. هذا هو شعيب طلحـة الذي يجد طريقه في نهاية الأمر إلى السيل الصغير. تتبعنا هذا مسافة ميلين، حـتى مجموعة من النصب وقبر منفرد، وحوله

التفـفنا وصعدنا مسـيلاً يقع بين صخور صـعبة، لنجد أنفـسنا عند مدخل الردهة الرئيسة الثانـية. وجدت على صخرة من صخوره نقش بعـض آيات قرآنية ومررنا بعدها على الفور بصخور حادة مطوقة لجانبي جلاميد ارتفاعها ٣٠ قدماً. لا بد أن هذا الممر قـد تم إعداده عن طريق النسف، وكـانت أرضيتـه صخراً طـبيعـياً نُعِّمَ بواسطة ضغوط قرون متواصلة من الحركة.

وصلنا إلى قمة المـمر على ارتفاع ٣٠٠ ياردة، وهبطنا منها على ممر مـتعرج قليلاً ومعبّد طوله ٥٠٠ ياردة يقع بين الجلاميد الصخرية على يسارنا، وبين حائط حاجـز جيد البناء على الجـانب الآخر، الذي يطل المسيل من أسـفله. دخلنا عند القاع، إلى هذا المجرى إلى شعيب ركك الذي يصب في نهـاية الأمر في مجموعة مسايل لشعب سـيل غربان ومنه إلى السيل الكبير. تركنا المجـرى لنخترق السلسلة على جانبه الأيسر حيث توجد مجموعة حجارة تعلم الطريق إلى السيل. لاحظت على الصخور بعض نقوشٍ عربية أخرى مختصرة، وعلامات باهتة جداً ربما كانت ذات مرة رسـماً، على ارتفـاع ٥٠ قدمـاً على جانب التل. هبطنا بعـد ذلك إلى ملتقى عدد من المسـايل للوصول إلى مجرى سيل غربان الذي يجـري قليلاً ناحية الشمـال الشرقي، تجـاه المضيق الـنهائي ريع الزلالة الذي يطل على وادي السـيل الكبير العريض ومحطته المهمة للحجاج.

بدأت أحس باليـأس في أن أجد الصورة التي كنت أبحـث عنها، وذلك لأن الصخور لم تحمل أي شيء غير كتابة عـربية وكوفية ذات أهمية قليلة، إلى جانب الأوسام القبلية المعروفة. لفت نظري عند منتصف الطريق إلى أعلى، على الجانب الأيسر، قالب كبير من الجرانيت الأحمـر تآكلت حتى اسوّد لونها، وعليها نقوش شاحبة وعلمت بالبداهة أنـها الرسم الذي ظللت أبحث عنه والنقش المشهور الذي

أوضحه تشارلز داوتي في صفحة ٥٢٨ (الطبعة الأصلية) لكتابه «الصحراء العربية».

لقد كانت هذه هي الحقيقة، نزلت من فوق مطيتي مسرعاً للوصول إليها، بدت لي الرسمة مختلفة عما قد علق في ذاكرتي عن نسخة داوتي، وبالطبع فلقد كانت مختلفة! لقد «وصف داوتي صورة لشخص ضخم إلى نصف طوله، وهناك نقش يقول إنه من الصعوبة ملاحظته من النظرة الأولى في وضح النهار، كصعوبة مشاهدة الرجل على القمر. هذا الإنسان القديم والعظيم. من قبل ومن بعد، قد بدا وكأنه جالس وقد أمسك في يده عصا (لقيادة جمل) ويصطف تحتها سطران من كلمات حميرية وكان التعليق متعامداً».

لقد كان التعليق في الحقيقة هو الذي أزال كل شك في أنني وداوتي نقف أمام الرسم نفسه، أزالت فترة ٥٤ عاماً حروفاً قليلة من النقش كانت قد تآكلت، وإلا فإنها هي الكتابة نفسها تحتل المكان نفسه بالنسبة للشكل. ولكن الشخص الهائل الذي أوضحه داوتي وكأنه يواجه المشاهد جالساً القرفصاء واضعاً إحدى يديه على خاصرته والأخرى ممتدة وتحمل عصا، له علاقة محدودة مع ما رسمته أنا للمنظر الجانبي للمصري البطلموسي النحيل جالساً على صخرة وقد توشح حزاماً حول خصره الضيق ومادا عصاه أمامه. ومع ذلك، فإن كل سمة لهذا الرسم المخطط البسيط لهذا الشخص قد تم نسخه بدقة وأستطيع أن أقول: بأن تفسيري له كان أكثر صدقاً مما جاء به داوتي الذي يكون قد نظر إليه وهو غير واضح أو كان في استعجال من أمره. إنه مطلب شجاع أيا كان الشخص المتقدم به ذلك لأن داوتي نادراً ما يقع في الخطأ غير أنني مقتنع بأنه في هذه المرة قد وقع فيه، وقد أمضيت نصف ساعة وأنا أفحص اللوحة وأنقلها.

وصلنا إلى قمة الممر -٤١٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر- خلال خمس دقائق من هذا النصب، وهبطنا منها في طريق معبَّد بلا عناية، من سلاسل من جرانيت أحمر ورمادي. كانت بعض أجزاء الرصيف منزوعة أو مدمرة بفعل السيول ولكنه يصل تقريباً إلى نهاية المنحدر السفلي، ومن هناك واصلنا المسيرة إلى محطة السيل في بطن شعيب رملي.

وتوقفنا للراحة بعد أقل من نصف ساعة، على مسافة ليست بالبعيدة من مجموعة عشش مكونة القرية. لقد كانت القرية إحدى المواقيت (جمع ميقات) أو المحطات التقليدية لاستبدال الملابس العادية بإحرام الحج. يقوم أصحاب المحلات القليلون المقيمون هنا بسد حاجات الحجاج، وتموينهم بالماء الساخن لأجل الغسل والوضوء، قبل ارتداء الإحرام، إلى جانب تقديمهم الشاي والقهوة والطعام. لقد اختبرت كرمهم من قبل في عام ١٩١٧م، حينما أمضيت ومجموعتي ليلة هنا، ولكن في هذه المرة بدا المكان مرحاً، ونصبت الخيام استعداداً لاستقبال الملك القادم من الرياض لأجل الحج. لقد غادر موكب السيارات الملكي العاصمة الصحراوية بالأمس، كما مر الأمير فيصل من هنا عبر السيل، وقبل ساعات من وصولنا للإعداد لاستقبال الملك في عشيرة. وصلت ثلاث عربات لحاشية الملك من بينهم صديق قديم لي، هو جابر المري ووصل كذلك ابن نويصر إلى السيل في طريقه إلى الغاية نفسها، وذلك أثناء وجودنا هناك، وقد صحبتهم لتناول الوجبات الخفيفة من شاي وقهوة وبطيخ.

كنت مهتماً بوصول شاحنة على التو من الطائف تحمل جنوداً من رجال ونساء، عائدين من مكة بعد زيارة قصيرة إلى مسجد عبدالله بن عباس. كنت

أعرف السائق وقد عرض عليَّ خدمة نقلي إلى مكة، وقد قبلت منه ذلك في بهجة. اشتريت ماء ساخناً لأجل الغسل ولبس الإحرام، بينما كان الجميع يتناولون الوجبات الخفيفة استعداداً لمواصلة الرحلة. ودعت رفاق رحلتي والذين بالطبع سأراهم مرة أخرى في مكة. وصعدت إلى الشاحنة وانطلقنا على الطريق الذي أصبح الآن مألوفاً عبر بحيثة، وادي اليمانية، والزيمة، والشرايع، وجبل النور، وأخيراً مكة. كان الوقت ليلاً قبل وصولنا، وقد أديت شعائر زيارة المسجد الحرام في برودة المساء، قبل ذهابي إلى سكني الخاص، في حي جرول والذي منه بدأت رحلتي في ١٩ نوفمبر لمغامرتي الكبرى في الربع الخالي. خلال هذه الأشهر الأربعة والنصف، امتنعت تماماً عن التدخين، وكانت فكرتي الأولى هي الغليون الذي استمتعت به مع كوب من الشاي بعد أن استرحت من أعمالي. كنت مقتنعاً بالنتائج. وكان الخامس من أبريل حقيقة يوماً عظيماً بالنسبة لي، ولعلي لن أنس اسم الفائز بسباق الدربي[١] لعام ١٩٣٢م.

كنا طيلة هذه المدة على ظهور دوابنا لمسافة ٣٩٥ ميلاً، من السليل إلى السيل، قطعناها في ٢١ يوماً، بمتوسط ١٩ ميلاً في اليوم على جمال مرهقة، والتي كانت قد اضطرت إلى مسيرة إجبارية طولها ٣٤٧ ميلاً، عبر صحراء عديمة المياه، من نايفة إلى السليل في عشرة أيام، بلا ذكر شيء عن التجوال الطويل في الربع الخالي قبل ذلك، لمدة شهرين قطعنا خلالها ٩٥٨ ميلاً، لتصبح المسافة الإجمالية للرحلة ١٧٠٠ ميلاً، في ٩٠ يوماً، بمتوسط إجمالي ١٩ ميلاً في اليوم. كانت لدي كل الأسباب لأن أحس بالقناعة، ولقد كنت بالفعل قنوعاً.

(١) من أشهر سباقات الخيل في بريطانيا ولازال مستمراً. (المراجعون)